أمل دنقل

الأعمال الشعرية الكاملة



أمل دنقل

الأعمال الشعرية الكاملة

مكتبة مدبولي
القاهرة

الطبعة الثالثة

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

مقدمة

الدكتور / عبدالعزيز المقالح

« أمل دنقل . . أحاديث وذكريات »

لم تكن وفاة أمل دنقل مفاجأة لأحد من الأدباء في الوطن العربي . فقد كان كثير منهم يعيشون على أعصابهم قلقاً وانتظاراً لاعلان نبأ الوفاة ، فمنذ ثلاثة أعوام والشاعر الكبير يتعذب ويتساقط قطرة قطرة ونبضاً نبضاً ، وكان واضحاً بعد اكتشاف نوع الداء الذي انشب أظافره في الجسد النحيل أنه لن يبرح حتى يسلمه للموت ، وأنه لا أمل في العلم ، وأن أقصى ما يقدمه للانسان العاجز لا يزيد عن تأخير ساعة الوفاة أو إطالة أيام العذاب ! !

ومن الملاحظ ـ ألاحظ ذلك في نفسي ـ أنه بالرغم

من أن وفاة الشاعر الكبير لم تكن مفاجأة إلا أن إعلانها المتأخر قد هز المشاعر وكان بمثابة صدمة عنيفة لأصدقاء الشاعر ومحبيه أفقدهم القدرة على الكتابة الشعرية أو النثرية على حد سواء ، وبما أنني أحد أصدقاء أمل دنقل واحد الذين رافقوه وقرأوه عن قرب ، فقد أفقدني النبأ المتوقع القدرة على التفكير والقدرة على الامساك بخيوط التعبير عن ألم الوداع ، واكتفيت باسترجاع بعض الأحاديث والتقاط صور بعض الذكريات الغارقة في قاع الذاكرة ، وبعض هذه الأحاديث والذكريات يعود إلى أيام قليلة وبعضها الأخر يرجع إلى سنوات ، فقد عرفت الشاعر الراحل في أواخر الستينات وقبل أن يظهر ديوانه الأول الذي شغل به الشعراء . وقد ربطت بيننا ـ منذ أول لقاء ـ مودة كبرت مع الأيام واتسعت في رحاب الكلمة وزاد تقديري له وإعجابي به عندما أصبح شعره كله صوتاً مكرساً لقضية الشعب العربي في مصر . وبما أن الأحاديث والذكريات عن أمل دنقل الصديق والشاعر ـ كثيرة وحاضرة بكل وقائعها ورموزها فإنني سأحاول اختيار أقلها

وأقربها إلى الوجدان العام ـ ولأن النهاية دائماً هي الأقـرب وهي في حد ذاتها الـذاكرة التي لا تمحى فإننا سنبـدأ من النهاية .

الحديث الأخير :

حدثني صديق كان في القاهرة منذ أسـابيع فقـال : ذهبت إلى المستشفى الذي يرقد فيه الصديق المشترك أمل دنقـل ، دخلت الجناح الـذي يقيم فيه ، وسـألت إحدى الممرضات عنه فأشارت بيدها نحو غـرفة معينـة ، فتحت الباب ونظرت داخل الغرفة باحثاً عن أمل الذي ودعته منذ خمس سنـوات ، لم أجده هنـاك رأيت إنسانـاً لا يمكن أن يكون هو الشخص الـذي أعرفـه عدت أدراجي بعـد أن أغلقت البـاب ورائي وذهبت مـرة أخـرى إلى الممـرضــة لأسألها عن غرفة أمل دنقل الشاعر ، فأشارت مرة أخرى إلى نفس الغرفة ، وعدت لأفتح الباب وأفتش في جوانب الغرفة عن أمل فلم أجده وهممت بالتراجع مرة ثانية إلا أن أمل عرفني، فناداني باسمي . صوته هو الذي لم يتغير ، أما

جسمه فقد صار شيئاً آخر ، أي عذاب رهيب يفوق الخيال هذاالذي تعرض له الشاعر ؟ هكذا سألت نفسي وأنا أتوجه نحو السرير الذي يرقد عليه ، وكنت قد قررت أن أتمالك وأن لا يبدو على وجهي أي تأثر أو انفعال يثير في نفسه ، ٠ الألم ، الأأنخي ما كدت أراه بتلك الحال حتى انفجرت باكياً ، لكنه قابل بكائي بابتسامة عريضة ثم سألني : لماذا تبكي ؟ اتخاف علي من الموت إنها منيتي المفضلة ، إنه الأمل الأخير ، الطبيب الذي يتفوق دائماً على أمهر الأطباء . . وواصل ابتسامته المنكسرة ، ولاحظت أن قدراً كبيراً من الشجاعة ظل يشع من ملامح وجهه الغائر . .

ومضيت مع الصديق نتجاذب أطراف الحديث ونتذكر أمل دنقل القديم ، سنوات العذاب الطويل ، أيام التسكع والجوع ، خلال الفترة التي اشتدت فيها وطأة القهر والظلم والفقر والمطاردة على أمل دنقل قبل أن تشتد عليه وطأة المرض القاتل . قال لي الصديق الذي لن أذكر اسمه بسبب الفقرة التالية من الحديث : لقد كنت في

القاهرة منذ سبع سنوات ، رايت خلالها امل دنقل اكثر من مرة وذات يوم رأيته كالعادة يذرع الطرقات بحثاً عن صديق يدفع له ثمن الغداء . وعندما رآني توجه نحوي قائلاً : نصف جنيه ، نصف جنيه فقط ثمن الغداء .

وعندما كنت معه في المستشفى منذ أسابيع مددت يدي إلى جيبي وأخرجت خمسمائة جنيه وقدمتها إليه في خجل ، ضحك أمل دنقل من تصرفي غير المهذب ، وقال لي : اطو أوراقك يا أخي فلم أعد بحاجة إليها ، كنت منذ سنوات كما تذكر بحاجة إلى ورقة واحدة منها ، وكانت ورقة واحدة تكفي لتسعدني يوماً أو أكثر أما الآن فلا قيمة لها عندي ، إن ما في العالم من هذه الأوراق لا مز شعرة في جفني ، ولا يخفف الم دقيقة واحدة من عذابي الطويل المرير !!

أطياف ذكرى :

كان قد نشر عدداً غير قليل من القصائد حين التقيت به لأول مرة ، لكنه لم يكن قد أصبح مشهوراً ،

وكان وثيق الصلة بشاعرين من أكبر شعراء القصيدة الجديدة في مصر هما : صلاح عبدالصبور وأحمد عبدالمعطي حجازي ، وكانت علاقته بالأخير وتأثره بشعره أوضح وأصرح . وفي الأعوام الأولى التي تعرفت فيها على أمل ابتداء من عام ١٩٦٦ كان أكثر التصاقاً بحجازي وأكثر تأثراً وتقليداً لطريقته في الحياة قبل أن يصير له أسلوبه الخاص وحياته المطلقة التي زادت الظروف في تعقيدها وزادت في الوقت ذاته من عفويتها .

وكانت هزيمة حزيران ٦٧ بداية الانعطافة الحقيقية نحو الشهرة ونحو الشعر ، وليس في هذا ما يمس بعبقرية الشاعر من قريب فقد كرست المآسي العظيمة الشعراء العظام ، ومأساة فلسطين هي التي خلقت وكرست أهم شعرائنا أمثال : محمود درويش وسميح القاسم وغيرهما ، وفي الأيام الأولى للنكسة أو الهزيمة كان أمل دنقل يقرأ قصيدة (زرقاء) قبل النشر وهي قصيدة جريئة أكدت خطواته على طريق الشعر ، وكانت عنواناً لأهم دواوينه (البكاء بين يدي زرقاء اليمامة) كنت يومئذ بجواره ،

حد تحذيره عن مجرد التلفظ بها حتى لا يناله الأذى ، لكنه لم يتردد وسارع في نشرها وجعلها بعد ذلك عنواناً لديوانه الأول ، كما قرأها في أكثر من منتدى شعري وفي أكثر من ملتقى أخـوي، . . وفيماتبقى من عـام ٦٧ وإلى أوائـل السبعينات كانت القصيدة على كـل لسان ، فليس قبلهـا قصيـدة وليس بعدهـا قصيدة نـالت ما نـالته من الشهـرة والذيوع ، فقد ارتبطت بالجرح القـومي الأكبر ، وكـانت تعبيراً عميقاً وصادقاً عن موقف عنترة (الشعب العـربي) الذي تركـه الحكام في صحـراء الاهمال يسـوق النوق إلى المرعى ويحتلب الأغنام ويجتر أحلام الخصيـان حتى إذا ما اشتدت الحرب وأعلنت المعركة ذهبوا إليه يستصرخون فيه روح الحميـة ويدعـونه إلى الـدفاع عن قصـورهم المضاءة بالمسرات وألوان الترف .

كـانت القصيدة شجـاعة وجـارحة ، وقـد وضعت الأدب الحزيراني من أول يوم في موضعه الصحيح قبل أن

يحاول بعض الشعراء والكتاب أن يجعلوا منه شيئاً آخر ، فقد حاول أمل دنقل ونجح في أن يجعل منه أدب مقاومة ، مقاومة للأخطاء النابعة من الداخل ، ومقاومة للعدوان القادم من الخارج ، أدب مجالدة وتحد لا أدب استسلام ولطم خدود وبكاء عاجز على اللبن المراق في صيف التعاسة والانكسار !! وكان لا بد لعنترة (الشعب العربي) أن يثبت بالدليل القاطع غيابه التام عن المعركة التي دارت بين السلطة التي لا يشك في وطنيتها وفي غرورها وبين العدو الذي لا يشك في خطره وغطرسته وتنامي أطماعه :

أيتها النبية المقدسة . .
لا تسكتي . . فقد سكت سنة فسنة . .
لكي أنال فضلة الأمان
قيل لي « اخرس . . »
فخرست . . وعميت . . وائتممت بالخصيان
ظللت في عبيد (عبس) أحرس القطعان
اجتز صوفها . .

أرد نوقها . .
أنام في حظائر النسيان
طعامي : الكسرة . . والماء . . وبعض التمرات اليابسة
وها أنا في ساعة الطعان . .
ساعة أن تخاذل الكماة . . والرماة . . والفرسان .
دعيت للميدان
أنا الذي ما ذقت لحم الضان . .
أنا الذي لا حول لي أو شان . .
أنا الذي اقصيت عن مجالس الفتيان ،
أدعى إلى الموت . . ولم أدع إلى المجالسة . .
تكلمي أيتها النبية المقدسة . .
تكلمي . . تكلمي . .
فها أنا على التراب سائل دمي
وهو ظمئ . . يطلب المزيدا . .
أسائل الصمت الذى يخنقني.
« ما للجمال مشيها وئيدا . . ؟! »

أجندلاً يحملن أم حديدا . . ؟!

(ديوان البكاء بين يدي زرقاء اليمامة ص ٢٨ دار العودة) .

ولم يقف الشاعر عند حدود هذه الشكوى ولا عند حدود هذه التساؤلات الفاضحة لما حدث في صبيحة الخامس من يونيو ، وهو لا يكتفي باستدعاء زرقاء اليمامة ولكنه في قصيدة أخرى كتبها في الذكرى الأولى لمناخ الهزيمة يستدعي المتنبي ويجري بينه وبين كافور حواراً ساخراً حول مصير ـ خولة ـ الفتاة العربية التي اختطفها الرومان من ـ أريحا ـ بعد أن ذبحوا شقيقها :

ساءلني كافور عن حزني

فقلت إنها تعيش الآن في بيزنطة

شريدة . . كالقطة

تصيح (كافوراه . . كافوراه)

فصاح في غلامه أن يشتري جارية رومية

نجلد كي تصيح (واروماه . . واروماه . .)
. . لكي يكون العين بالعين
والسن بالسن . . ! »

ويصل الانفعال مداه ، كما تصل الشجاعة أيضاً مداها في محاولته الجريئة فضح القيادة العسكرية المهلهلة ، وقد استخدم عنصر التضمين الشعري كأقوى وأجود ما يكون الاستخدام وأصبحت الأبيات المضمنة أكثر التحاماً وتداخلاً في بناء القصيدة وفي إعطائها الدلالة الرمزية التاريخية وليس كما فعل ويفعل بعض شعراء القصيدة الجديدة الذين يقومون بما يشبه عملية (اللصق واللزق) حيث يظل أسلوب التضمين سطحياً وناشزاً عن السياق الفني والنفسي ، وقد رأينا في المثال الأول كيف نجح في دمج البيت الشهير (ما للجمال مشيها وئيدا) ولنر الآن كيف ومتى ولماذا ، جاء بأبيات المتنبي في آخر قصيدته الغاضبة « من مذكرات المتنبي في مصر » وهي في رأيي من معالم شعر ما بعد حزيران :

تسألني جاريتي ان اكتري للبيت حراسا
فقد طغى اللصوص في مصر . . بلا رادع
فقلت : هذا سيفي القاطع
ضعيه خلف الباب . . متراسا
(ما حاجتي للسيف مشهورا
ما دمت قد جاورت كافورا ؟)
« عيد بأية حال عدت يا عيد ؟
بما مضى ؟ أم لأرضي فيك تهويد ؟
(نامت نواطير مصر) عن عساكرها
وحاربت بدلا منها الأناشيد
ناديت يا نيل هل تجري المياه دما
لكي تفيض ، ويصحو الأهل إن نودوا ؟
« عيد بأية حال عدت يا عيد ؟

لقد حقق أمل دنقل بقصائده الجريئة عن النكسة وآثارها شهرة واسعة ، وتحقق له من النجاح في عام واحد

ما لم يتحقق له في سبع سنوات هي عمر كل محاولاته الشعرية السابقة . كان الطريق إلى الشعر قبل ذلك طويلاً وشاقاً أما الآن فقد صار أقصر مما كان يظن وإن كان ما يزال أشق مما كان يتوقع وذلك بسبب الاصرار على الجنوح إلى كتابة الشعر اللاذع ، وبسبب اختياره الطريق النبيل والصعب ، طريق اشعال الحرائق في وجدان الجماهير النائمة المهزومة ، تلك الجماهير التي كانوا وما يزالون يتحدثون عنها في القصائد وفي الخطابات وفي الصحف كما يتحدثون عن فئران التجارب وأرانب المعامل ولكن دون إحساس حقيقي بما تعاني ولعل أهم ميزة يتميز بها شاعر كبير كأمل دنقل أنه لم يكن يخاف من شيء أو يخاف على شيء وقد ساعدته عفويته المنطلقة وطبيعته غير المنضبطة على الاحتفاظ بنقائه وتمرده . .

أطياف حديث :

بعد ثلاثة أعوام تقريباً من وقوع الهزيمة التي مزقت

حياة العرب المعاصرين وشوهت معالم الأيام العربية ، رحل المناضل جمال عبدالناصر ، وكانت وفاته أو بالأصح كان غيابه عن الساحة العربية في مثل تلك الظروف الفاجعة هزيمة أخرى ، وبعد رحيل عبدالناصر بأربعين يوماً التقى الشعراء العرب من مختلف الأقطار العربية لتأبين الزعيم الراحل وفي الاستراحة الجانبية للقاعة الكبرى للاتحاد الاشتراكي ، كان عدد من الشعراء والنقاد يقطعون الوقت في انتظار لحظة افتتاح الاحتفال التأبيني ، وكنت قد أخذت لي مكاناً بينهم ، وكان أمل دنقل قد اختار مكاناً قصياً في الاستراحة وحيداً وبعيداً عن الآخرين ، كان يبدو متوتراً ، يكثر من التدخين وكأنه يلتهم السجائر التهاماً وبين حين وآخر ينظر إلى السقف كأنما يحاول اختراقه بنظراته الحادة . قال أحد الحاضرين لعله يعاني من حالة شعرية وربما كان متوحداً لأن قصيدة الرثاء لم تكتمل بعد ، وقال آخر ربما أن أحد الحاضرين قد حاول الاساءة إليه فابتعد مؤقتاً ليبدد شحنة الغضب ثم يعود إلينا ليملأ المكان بملاحظاته وضحكاته (وقفشاته)

المختلفة ، وانطلق صوت شاعر شاب يقول : إن أمل يعاني من حالة حزن حقيقي لغياب عبدالناصر ، فقد كان الرجل بالرغم من كل شيء الحارس الأمين للكلمة والشعرية منها خاصة . واستقر الحديث بعد أن جال وتنقل في ميادين شتى حول عبدالناصر وكيف كان يتعامل مع الأدباء بطريقة تختلف تماماً عن تعامله مع السياسيين وينحسب ذلك التعامل على الأدباء الملتزمين أو المتسيسين . وقد نال الشعراء بخاصة طوال عهده حظوة كبيرة وشملهم برعاية خاصة ، فهو لا يسمح للأجهزة بمصادرة أعمالهم الأدبية أو يمنعهم عن النشر والسفر ، ولم يكن يسمح للصحافة في مصر أن تتناول بالاساءة ايا من شعراء العرب الذين يختلفون مع النظام الناصري . حدث ذلك مع سليمان العيسى ، ومع الجواهري ، ومع البياتي ، ومع الفيتوري ، ونزار قباني ، وقد اشتهر لكل هؤلاء قصيدة أو أكثر في مهاجمة شخص عبدالناصر بالذات وقد ظلت القاهرة مفتوحة لهم بعد مواقفهم ، كما

كانت قبل ذلك ، وقد ظهر في وقت متأخر من حياة عبدالناصر بعض المتشاعرين الذين حاولوا من منطلق المنافسة غير المتكافئة الاساءة والتشويه المتعمد لأدوار ومواقف بعض الشعراء خارج مصر مما اضطر عبدالناصر نفسه إلى أن يتدخل ويضع حداً لهذه الظاهرة المعادية للشعر والشعراء .

كان عبدالناصر ـ إذن ـ بحسه الثوري يدرك أن الشاعر الحقيقي في مصر أو في بقية الأقطار العربية يشكل طاقة حدس واكتشاف خلاقه فالشاعر ليس كزرقاء اليمامة ترى الأشياء عن بعد ولكنه يرى الأشياء والأحداث بعين بصيرته الشعرية ويتنبأ بها قبل وقوعها وقد نشر الشعراء في مصر قصائد تنبأت بالنكسة ونبهت إلى ما حدث قبل أن يحدث ، ونشرت الأهرام فيماأتذكر قصيدة للشاعر محمد إبراهيم أبو سنة قبل النكسة بأسابيع وكان عنوان القصيدة (نحن غزاة مدينتنا) وكأنما كانت تقرأ ما سوف يحدث في صحائف مكتوبة من قبل .

يكون .. لا يدرون
أن كل واحد من الماشين
به .. صلاح الدين .

كان الليل داكناً مكتئباً حين رجعنا من حفل تأبين ، وكانت الأضواء الصفراء في الميادين والطرقات قد ازدادت اصفراراً وشحوباً . وكان زميلنا الذي يقود سيارته والدموع تملأ عينيه يردد القسم الذي أطلقه أمل دنقل ، وكان مثله يحلم بعودة سيناء وبسقوط النجمة السداسية من فوق حائط المبكى إلى التراب . . .

« امل دنقل وانشودة البساطة في الشعر »

كان وصف (الشاعر الصعلوك) يتردد كثيراً في الأوساط الأدبية المصرية كلما ذكر امل دنقل وكثيراً ما قيل هذا الوصف بحضوره فيضحك ويعتبر هذا الوصف أو اللقب إذا جاز أنه كذلك ، يعتبره تحية كريمة لشاعر معاصر ينأى بنفسه عن الاقتداء بالشعراء المدجنين شعراء الحواضر والصالونات المعطرة والبدلات الأنيقة والسيارات الفارهة . كان واحداً من موكب جليل للشعراء الصعاليك المعاصرين الذين يرغبون عن عَالم المغريات المختلفنوأن يظلوا خفافاً نظافاً لا تأسرهم زينة الحياة الدنيا ولا تشدهم إلا بمقدار ما تمكنهم معطياتها الصغيرة من الكتابة والابداع .

ومن حسن حظ الشعر العربي في مصر وفي بقية الأقطار العربية أن الشعراء الحقيقيين لم يرتفع بهم شعرهم أو بالأصح لم ينخفض بهم إلى مستوى البذخ المادي والترف الحياتي ، وقد أثبت الشعر على مر العصور بما في ذلك العصر الحديث أنه كفيل بأن لا يلقن اسراره العميقة ولا يضع ناره المقدسة إلا في النفوس الزاهدة والقلوب البريئة من التطلعات المريضة ، وقد ظلت تلك هي أبرز سمات الشعراء الحقيقيين جيلاً بعد جيل فلم تطوح بهم الرغبات الخاصة وتدفع بهم بعيداً إلى سراديب مضاءة تصرفهم عن الشعر وتصرفهم عن الناس ، وإن كان قد حدث غير ذلك فهو استثناء عن القاعدة والاستثناء كما يقول المناطقة لا يعول عليه ولا يؤخذ به .

وقد كانت الصورة الشائعة عن امل دنقل هي صورة الشاعر الصعلوك ، لكنه كان صورة فريدة في صعلكته وفي محافظته على تقاليد الصعلكة الشعرية بثوبها المعاصر ، وقد سمعت من يحاول أن يقارن بينه وبين الشاعر المرحوم

عبدالحميد الـديب الذي هـزت أخبار بؤسـه الثلاثينـات والأربعينـات وحفلت المقاهي والمنتـديـات في تلك الفتـرة بـأحاديث بؤسـه وبعطارحـاته واهـاجيه المتنـوعة ، إلا أن الفارق بين الشاعرين كبير والفارق بين الصعلكتين أكبر ، صحيح أن البؤس الذي عانى منه الشاعران كلاهما متشابه ويكاد يكون واحداً إلا أن بؤس الأول ذاتي وناتج عن نهم شديد إلى الحياة في حين أن بؤس الآخـر عام ونـاتج عن زهـد في الحيـاة ، ولـو أن الشـاعـر الأول وجـد الأبـواب الواسعة إلى النعيم كما وجدها الثاني لما تردد عَن دخولها غير هياب ولا متحرج وهذا الفارق الأخير يكفي لمعرفة ما بين الشاعرين من تباين واختلاف وفضلاً عن هذا وذاك فإن امـل دنقل شـاعـر يمثـل مـرحلة اجتمـاعيـة مختلفـة كـل الاختلاف عن المرحلة التي ظهـر فيها عبـدالحميد الـديب والهموم التي حاول التعبـير عنها تختلف كـذلك عن همـوم المراحل السـابقة كلها .

لقـد انفق امل دنقـل ساعـات كثيرة من حيـاته في

مقاهي - كما فعل عبدالحميد الديب تماما لكن أحاديث
المقاهي اختلفت والقصد من ارتياد المقهى اختلف أيضاً ،
فالقضية التي تؤرق امل دنقل ما كانت لتخطر على ذهن
عبدالحميد الديب ، وإذا كانت قد خطرت على ذهنه فبقدر
كبير من الغموض ، وإذا كنت قد أشرت في ما سبق من
حديث الذكريات فإن شريطاً طويلاً حافلاً بالذكريات التي
تتواكب من قاع الأيام الراحلة ، ولعل أكثرها بروزاً
ووضوحاً صورة امل دنقل في بيته أو بالأصح في احدى
الشقق الكثيرة التي استأجرها الواحدة بعد الأخرى لتكون
مقراً للنوم . كانت واحدة منها شقة أرضية من غرفتين في
ميدان العجوزة استأجرها لفترة وعاش فيها مع زميله
الصديق الشاعر حسن توفيق ، وقد زرتهما في هذه الشقة
عشرات المرات رافقني في معظم تلك الزيارات الصديق
الشاعر محمد الشرفي اثناء عمله في سفارتنا بالقاهرة ، وقد
اعتدنا أن نذهب إلى الشقة قبيل الغروب ، وفي كل مرة
كنا نرى امل دنقل اما نائماً أو مشغولاً باعداد طعام الغذاء

مع زميله ، وكنا نقضي فترة انتظارهما للطعام في حديث عن الشعر والأدب وفي قراءة بعض القصائد وكان الغداء متواضعاً في كل يوم ولا يزيد عن البطاطس وأرغفة الخبز وبعض الأوراق الخضراء . وكثيراً ما امضينا الساعات الطويلة بعد أن يتناول الشاعران البائسان غداء هما أو عشاءهما في أحاديث أدبية ، وفي معظم الأحيان كنا نتوجه إلى دار الأدباء أو إلى منزل الصديق محمد الشرقي لقضاء سهرة أدبية لا تقتصر على امل وزميله ، إذ غالباً ما ينضم إليها صلاح عبدالصبور وأحمد عبدالمعطي حجازي وغيرهما من الأدباء والشعراء الكبار الذين يضيئون الليالي بأحاديث الفكر والأدب وبروائع الشعر ، ولعل الفترة التي قضاها امل دنقل في شقة ميدان العجوزة اسوأ فترات حياته وأحفلها بالمتاعب وانتفاء الاستقرار وقد وصل الحال به وبزميله الشاعر حسن توفيق إلى أن يتبادلا ارتداء قميص واحد في الحفلات والسهرات ولعدة أشهر ، فإذا خرج احدهما انتظر الآخر في المنزل حتى يعود زميله ، والغريب

نه بالرغم من ذلك الحال وربما بسببه فقد كانت تلك
سنوات هي أخطر وأهم سنوات الانتاج الشعري وأهم
سنوات المواجهة الحادة بالكلمة ، وفي هذه الفترة كتب أمل
عم قصائده وأجملها واكتسب شهرة فائقة قفزت به من بين
شعراء الشباب إلى مستوى صلاح عبدالصبور وأحمد
عبدالمعطي حجازي إن لم تكن قد تجاوزت به هذين
الشاعرين الكبيرين . وكانت قصيدته (أغنية الكعكة
الحجرية) حدثاً في تاريخ الشعر السياسي في مصر وفي
الشعر العربي بأجمعه ، وقد كتبها وسط مظاهرات الطلاب
ومصادماتهم الشهيرة مع شرطة النظام في عام ١٩٧٢ م
ومنها هذا المقطع الذي يخاطب الشاعر فيه مصر التي
ارتعشت يومئذ من خلال مظاهرات الطلاب وتململ
الشعب :

اذكريني ! !
فقد لوثتني العناوين
في الصحف الخائنة
لونتني لأني منذ الهزيمةلا لون لي

غير لون الضياع
قبلها كنت اقرأ في صفحة الرمل
والرمل أصبح كالعملة الصعبة
الرمل أصبح أبسطه تحت اقدام جيش الدفاع !
فاذكريني، كما تذكرين المهرب والمطرب العاطفي . .
وكـاب العقيد . . . وزينة رأس السنة
اذكريني إذا نسيتني شهود العيان
ومضبطة البرلمان
وقائمة التهم المعلنة
الوداع !
الوداع !

(من ديوان العهد الآتي) .

انشودة البساطة :

كـان أمل دنقـل شاعـر البسـاطـة في زمن التعقيـد والغموض ، وأول ما يلفت الانتبـاه في قصائـده البسـاطـة الحادة المصقولة التي تتحول إلى انشـودة مفرطـة التواضـع « وأنشودة البسـاطة » تعبير حديث اطلقه بين شباب الكتاب

و شعراء الكاتب الفنان يحيى حقي ، والبساطة عند ذلك
شيخ الوقور ـ كما فهمها جيل أمل دنقل ـ لا تعني التمرد
على القواعد اللغوية اوالخروج على الأسس الفنية للكتابة ،
ولا تعني الرقة والتبسيط ، إنما تعني تلقائية التناول أو عفوية
التعبير ، والابتعاد عن خشونة اللفظ إلى خشونة المعنى ،
وتحويل العمل الأدبي من شعر لا يفهم محتواه سوى نفر
قليل من الكتاب . . إلى أنشودة جماعية والى لغة فن
ووجدان . ومن السهل جداً أن يتتبع المتلقي فضلاً عن
الدارس تجربة أمل دنقل الشعرية وأن يتبين ملامح القراءة
في هذه التجربة التي تختلف عن تجربة الآخرين من زملائه
ومن الشعراء الذين سبقوه وقد ظلت تجربته متميزة منذ
البداية الصحيحة إلى أن توقفت مع الوفاة . وكانت
بساطته في التناول تجعله يرى أن الفرار من المباشرة لا يعني
الفرار من المحيط المباشر للواقع ، ولا تعني الفرار من
مواجهة العذاب الانساني والخراب والدمار والتشويه ،
وهذا الموقف جعله لا يقيم كبير وزن لما يسمى بالألفاظ

الشعرية ، أو بالمعاني المعقدة ، وهو في نثره القليل الـذي تضمنته مقابلاته المنشـورة في الصحف والمجلات لا يكف عن الهجـوم السافـر الحاد عـلى كثير من شعـراء القصيدة « المتجاوزة » وهو يرى أن معظم التجاوز يقف عند دائـرة اللغـة وحدهـا وعند الشكـل وحده وهـو يعتقد أن ذلـك الصنع لا يزيـد عن كونـه نوعـاً من الهروب عن مـواجهة الواقع « ولأن فقدان الثقة عند الشاعر في تغيير هذا الواقع قد أدى به إلى أنـواع من استجلاب وسـائل فنيـة في ظل حضـارة مختلفة ومحـاولة فـرضهـا عـلى المجتمـع الثقـافي ـ العربي ، ومن هنا تحول الشعر الحديث إلى شعر مثقفين ، في حين أن وظيفته الأساسية هي في ارتباطه بالناس . وقد كان انتصار الشعر الجديد منذ البداية راجعـاً إلى ارتباطـه بـالناس ، وتجـاوبهم بالتـالي معـه ، وتخليهم عن الشكـل القـديم . . وما يؤدي إليـه هـذا التجـاوز الحـديث عن المطلقات . . ومن هنا فإن هذا التجاوز للواقـع يحتاج إلى تجاوز للطرائق الفنية التي يتم بها التعبير عن هذا الواقع ، واستحـداث طرائق بـديلة واستجلاب لـمذاهب فنية ، أو

لجوء إلى الايهام بمحاولة تغيير الواقع أو الايهام بالثورة عن طريق ثورة شكلية فقط . . . الشعر لا يلقن اسراره العميقة ولا يضع ناره المقدسة إلا في النفوس الواجدة وفي القلوب البريئة من التطلعات المريضة » أي تكون الثورة على مستوى الشكل فقط .
(ندوة مجلة فصول عن قضايا الشعر المعاصر المجلد الأول العدد الرابع يوليو ١٩٨١ م) .

ومهما يكن نصيب وجهة النظر هذه من الخطأ أو الصواب فإن وراءها موقف شاعر كبير يدرك أنه خارج من احزان أمة كبيرة أسيرة اخطبوط خطير هائل من المعاناة والمشاكل ولا بد من أن نحس بالخطر الذي يتهددها ، ومهمة الشاعر بالذات أن يوصل هذا الاحساس إلى وعي الأمة وأن لا تتحول قصائده إلى مفردات قاموسية مجردة عن أي معنى أو إلى معان مطلقة تسعى إلى تخدير الوعي واماتة الحواس بدلاً من ايقاظها ، وفي مرحلة الهوان والانحطاط كالمرحلة التي نعيشها الآن لا بد أن يتخلى الشاعر عن

الوقوف في دائرة الأحلام الذاتية وقبل أن يحاول التحرر من القوالب الميتة أو التي يراها كذلك عليه أن يتجنب الوقوع في ما هو أخطر من هذه القوالب كالشكلية وتزييف الواقع ، تلك هي بساطة أمل دنقل التي جعلت من شعره صوتاً عميقاً وبسيطاً ، ومن المهم قبل ذلك وبعد ذلك أن نعلم أنه هو نفسه قد كان انشودة من البساطة والتواضع .

تمجيد التمرد في زمن الخنوع :

قضية الاساءة إلى الشعراء وتكفيرهم ومحاولة الانتقام من كبارهم تحت مختلف الادعاءات ، قضية شغلت الجانب الأكبر من تاريخ الشعر العربي ، ولم يسلم في الماضي من تهمة الزندقة والالحاد سوى صغار الشعراء ومن لا وزن لهم في الحياة والشعر على السواء . وقد شغلت هذه القضية عدداً من الباحثين ، وقد تلقيت منذ وقت قصير رسالة من باحث صديق تشغله القضية ويعد عنها رسالة دكتوراه ، يعكف عليها منذ خمسة أعوام . وقد لخص الهدف الذي يسعى إليه من دراسته بمحاولة التعرف

عن الأسباب الكامنة وراء محنة الشعراء ولماذا الشعرا
حدثت ، وقد رأى من خلال البحث الموضوعي القائ
عن النزاهة والصراحة ـ وهو يكتب الشعر ـ رأى أن كثير
من التهم التي توجهت نحو الشعراء قد كانت موجهة في
الوقت ذاته نحو الفلاسفة ورجال الدين وأصحاب
المذاهب والمتكلمين ولكنها كانت مع الشعراء ـ عبر
العصور ـ أكثر حدة فلم تذبح التهم الكبيرة فيلسوفاً وا
فدت إلى قتل رجل دين لكنها قتلت كبار الشعراء ، لماذا
هذا هو السؤال الذي يبحث صديقي في رسالته للدكتور
عن الاجابة عليه وهو يتلمسه عند عدد من الشعرا
الأحياء وعند بعض الأدباء الذين تؤرقهم المحنة التي
انسحبت إلى عصرنا من سلبيات العصور القديمة .

تذكرت محنة الشعراء هذه الأيام وأنا أعيش ذكريات
محنة صديقي الشاعر أمل دنقل فقد عانى بالاضافة إلى محن
الفقر والتشرد وإلى محنة القمع والارهاب محنة التكفير
نعم محنة التكفير ، وكانت قصيدته « كلمات سبارتاكوس

الأخيرة ، واحدة من القصائد التي وضعها « زعماء محاكم التفتيش » على مشرحة التكفير ، والقصيدة تدعو إلى التمرد ضد الطغيان وتمجد ذور العبد سبارتاكوس الذي امتشق السيف في وجه العبودية وفي وجه روما العابثة بانسانية الانسان ومطلع القصيدة وهو الأكثر اثارة يقول :

المجد للشيطان . . معبود الرياح
من قال (لا) في وجه من قالوا (نعم)
من علم الانسان تمزيق العدم
من قال (لا) . . فلم يمت ،
وظل روحاً ابدية الألم !

المجد هنا ، ليس للشيطان (ابليس) ولكنه للشيطان (سبارتاكوس) ذلك العبد الشجاع الذي اشتاقت نفسه للحرية فقال (لا) في وجه (القيصر) وكانت النتيجة أن اسمه ظل على كل لسان وظلت روحه الأبدية الألم تزرع الشجاعة في نفوس العبيد وتدفع بهم إلى الصفوف الأولى من المواجهة ، وقد فهم صغار العقول في

محكم التفتيش المعاصرة أن الشاعر يمجد ابليس وأنه بذلك قد كفر ، وأن دمه قد صار حلالاً . وقد حاول صغار العقول هؤلاء أن يصلوا بصرخاتهم الحاقدة إلى (أهل الحل والعقد) إلا أن الصرخات ضاعت في أرض مصر الواسعة الأرجاء ، وظلت تتردد همساً في دهاليز الكراهية حتى أن رحل الشاعر عن عالم الحقد والطغيان وأخذه الله إلى جواره الرحيم الكريم .

لقد كتب الشاعر قصيدته في الاسكندرية وفي شارع الاسكندر الأكبر وهو يتذكر الجموع الفقيرة الغفيرة وهي تسير في الشوارع محنية الظهور مثقلة الأعناق كقطيع الأغنام ؛ لا صوت يرتفع بكلمة (لا) الكلمة السائدة والشائعة هي (نعم) مصحوبة بالنسبة المعروفة(٩٩,٩٩ ٪

تذكر الشاعر كل ذلك فكتب قصيدته التي حاول فيها أن يعلم الجماهير العربية المضطهدة أن تقول (لا) حتى وإن كانت العاقبة لا تختلف كثيراً عن عاقبة ذلك الثائر المعلق في مشنقة على مدخل المدينة الظالمة :

معلق أنا على مشانق الصباح
وجبهتي ـ بالموت ـ محنية
لأنني لم أحنها . . حية
. . . .
يا اخوتي الذين يعبرون في الميدان مطرقين
منحدرين في نهاية المساء
في شارع الاسكندر الأكبر :
لا تخجلوا . . ولترفعوا عيونكم إلي
لأنكم معلقون جانبي . . على مشانق القيصر . .
فلترفعوا عيونكم إلي
لربما . . إذا التقت عيونكم بالموت في عيني
يبتسم الفناء داخلي . .
لأنكم رفعتم رأسكم مرة .

وبعد أن طهرت آلام المرض العنيف روح الشاعر الكبير وجسده الهزيل ، وعندما رحل إلى جوار ربه الغفور الرحيم لا أشك في أنه قد غفر لخصومه من أنصار محاكم

ـفتيش ودعـاة التكفير ولكن هـل اعتذر لـه هؤلاء هـل
ولوا أن يستغفروا لذنبهم الكبير ، ذنب اتهام المبـدعين
نب قتل المواهب ؟ كـان الشاعـر متهماً منـذ كان متنبي
بيلة وصوت احزانها ، ورجال الدين يتهمونه بالتجديف
لحاد . . ورجال السلطة يتهمونه بالخروج عـلى النظام
طيم الاستقرار الموهوم ومن سوء حظ الشاعـر الحقيقي
العصـر الحديث أن التهم القـديمـة لم تتغـير ولم تتـطور
بـرات العصر وتـطوراته . . في مـواجهة جـدار اليأس
حباط

آه . . ما أقسى الجدار
عندما ينهض في وجه الشروق
ربما ننفق كل العمر . . كي نثقب ثغره
ليمر النور للأجيال مره !

. . . .

ربما لو لم يكن هذا الجدار . .
ما عرفنا قيمة الضوء الطليق . . !

وضع امل دنقل هذا المقطع الصغير افتتاحية لديوانه الأول (البكاء بين يدي زرقاء اليمامة) ولاختيار هذا المقطع وللحرص على أن يتصدر فاتحة الديوان (البداية) لذلك كله مغزى خطير يلخص بمرارة خيبة الأمل والشعور بالعجز ازاء مختلف اشكال الاحباط في الواقع العربي المعاصر .

وصورة هذا الجدار الذي ينهض في وجه الشروق الخاص وفي وجه الشروق العام ليسد النور ويميع كل ومضة امل . . صورة هذا الجدار تعكس منذ البداية الشعور البائس المحبط ، ولكنها في الوقت ذاته تكشف عن استعداد شجاع وجريء لمواجهة هذا الجدار ومحاولة التغلب عليه ، وكأني بالشاعر في بداية حياته يشعر بوعورة الطريق واتساع المسافة لكن تفاؤل الشباب جعله وهو يقترب من الجدار يشعر بالزهو لأن الجدار يعطي لحياته قيمة ويعطيها معنى ، فأي معنى لحياة لا معاناة فيها ولا مكابدة . حتى

(سيزيف) ذلك البطل الأسطوري المحكوم عليه بحمل الصخرة إلى القمة لكي تعود إلى القاع ثم يعود هو إلى حملها من جديد إلى القمة في رحلة عذاب لا تنتهي بين القاع والقمة (سيزيف) هذا أي معنى لحياته التافهة المكرورة إن خلت من هذا العذاب المضني الرتيب . وأي عذاب للانسان بدون هذا الجدار الذي يحاول بجهده الانساني أن يفتح عليه ثغرة للنور ، نور المعرفة والتغيير إلى الأفضل والأجمل والأنقى . . وإذا كان الشاعر الكبير امل دنقل قد ظل يحفر في الجدار ورحل قبل أن يتدفق شلاله للنور المنتظر فإن كلماته ستظل تواصل الحفر والطرق على وجه الجدار الواقف في وجه الشروق إلى أن ينهدم الجدار ويتدفق انهاراً من الاشواء ، فمن غير المعقول أن تظل الأرض العربية تنزف دماً . وان يظل ابناؤها هكذا حياري يفترسهم الارهاب وتتقاذفهم الهموم إلى نهاية العالم .

أخيـراً أي شعور حـزين يعتـ
بـالكلمات شـاعـراً عـظيـماً عـاش
وللوطن . وأي احسـاس فـاجـع ب
نكتب بالكلمات كل يوم سـوى رثا
ابنـاء هـذا الـوطن و لأروع مـا
ونقاء . . . .

الدكتور عبـ

مقتل القمر

الإهداء

إلى الاسكندرية
سنوات الصبا !

براءة

أحسُّ حيال عينيك
بشيء داخلي يبكى
أحس خطيئةَ الماضى تعرَّت بين كفيك
وعنقوداً من التفاح فى عينين خضراوين
أأنسى رحلة الآثام فى عينين فردوسين ؟
وحتى أين ؟
تعذّبنى خطيئاتى .. بعيداً عن مواعيدك
وتحرقنى اشتهاءاتى قريباً من عناقيدك !
وفى صدرى
صبي أحمر الأظفار والماضى
يخطط فى تراب الروح ،
فى أنقاض أنقاضى !
وأنظر نحو عينيك

فترعشنى طهارة حب
وتغرقنى اختلاجة هدب
وألمح — من خلال الموج — وجه الرب
يؤنبنى
على نيران أنفاسى يقلبنى
وأطرق ...
والصراع المرُّ فى جوفى يعذبنى !!
... ...
أحدق فى خطوط الصيف فى شفتيك :
يموى داخلى الحرمان
(لهيب آدمى الشوق ، مصباحان يرتعشان)
وأهرب نحو عينيك :
يطالعنى الندى والله والغفران !
وأسقط بين نهديك
لتحترق الرؤى
وأغرق فيهما بالنار والشك
نحتوى رغبتى شيا
وأغمض عنك عينيا

وأسند رأسى الملفوح فى صدرك
فقد تترمدّ الأفكار فى جمرك
وأحرق جنة المأوى
... ...
فيا ذات العيون الخضرْ
دعى عينيك مغمضتين فوق السرّ
.. لأصبح حرْ !!

طفلتها

(.. مرت خمس سنوات على الوداع وفجأة .. رأى طفلتها !)

لاتفرّى من يدى مختبئه
.. خبت النار بجوف المدفأة !
أنا ..
(لوتدرين)
من كنت له طفله
لولا زمان فجأه
كان فى كفّى ما ضيعته
فى وعود الكلمات المرجأه
كان فى جنبىّ
لم أدر به !
.. أو يدرى البحر قدر اللؤلؤة ؟

يـ عمرك عمر ضائع من شبابى
تـ لدروب المخطئة
كـ فزت بعام
حـ ـرت مهجتى عاماً
وـ بعت صداه
تـ ـه نحمل من الماضى
سوى ذكريات فى الأسى مهترئه
عـ ـرى بالدجى
يـ تدجى للذى ضل مناه ..
تكـه !!

• • •

لعيون الواسعات الهادئة
والشفاه الحلوة الممتلئة :
حة طفليّه
ذكرها

وهى عن سبعة عشر منبئة
إننى أعرفها
فاقتربى
فكلانا فى طريق أخطاه
ساقنى حمقى
وفى حلقى مرارة شوق
وأمان صدئه
فابسمى ياطفلتى
(منذ مضت ... وابتسامات الضحى منطفئة)
ثرثرى
(صوتك موسيقى حكت صوتها ذا النبرات المدفئة)
ـــ « إحكِ لى أحجيةً »
ـــ لم يبق فى جعبتى
غير الحكايا السيئة
فاسمعيها يا ابنتى مسرعةً
عبرت فيها الليالى .. مبطئة
....
« كان يا ما كان »

ـه يمكن فتى
ـ يكن يملك إلا .. مبدأه
ـصة ذات ثغر يشتهى قبلة الشمس
ويرى ضماه
حتى الحب بها ؛ فاستسلمت
ويرى الحب به ؛ فاستمرأه
ـه قد صعدت مركبه
نضحى
في قصة مبتدئة
وهو في شرفته مرتقب
وهي في شباكها .. متكئة
حم منقسم
لا ينتهى حُلُمٌ
إلا وحلم بدأه
صعدا
سلمة ..
سلمة ..

فى قصور الأمنيات المنشأة
لم تكن تملك إلا طهرها
لم يكن يملك إلا مبدأه

• • •

ذات يوم
كان أن شاهدها
من له أن يشترى نصف امرأة
حينما أوما لها مبتسماً
فأشاحت عنه
كالمستهزئة
اشتراها فى الدجى
صاغرة
زفت السبعة عشر .. للمئة
لم يكن شاعرها فارسها
لم يكن يملك إلا ..
التهنئة

لم يكن يملك إلا مبدأه
ليس إلا ..
كلمات مطفأة

* * *

أترى تدرين من كان الفتى ؟
فهو يدرى الآن
يدرى خطأه !
والتى بيعت وفى معصمها الوشم
فاعتاد الفؤاد الطأطأة !؟
ومن النخاس ؟
هل تدرينه ؟
وهو ملاّح تناسى مرفأه
اننى أكرهه
يكرهه ضوء مصباح نبيل أطفأه
غير أن الحقد ..
(يا طفلته)

وأنت ياحبيبى
طير على سفر

ه ه ه

ويرحل المطر
ويذبل الشجر
ويغمر الغبار النقوش والصور
... ...
وتهبط الأحزان
فتمحى الألوان
والقلب
والخطوط العرجاء
والأسماء
وينخر السوس القديم فى العيدان
وترحل الطيور الزرق
بلا عنوان
تسأل عن هوانا
تسأل عما كان

.. ماكان يا حبيبى
حلم ؛ وقد عبر !

• • •

وينزل المطر
ويرحل المطر
وينزل المطر
ويرحل المطر
والقلب يا حبيبى
مازال ينتظر

قلبي .. والعيون الخضر

- ١ -

صبياً كان
شددت على يديه القوس
أعلمه الرماية
(كي يفوق بقية الأقران)
« فلما اشتدّ ساعده .. »
....
ثلاث سنين
أبارز قلبي المفتون
يجمع بيننا ليل ، ويفصلنا نهار قتال
تطل عليّ — خلف لثامه — عينان خضراوان
(كأوردةٍ تلوّن بطن ركبة عانس عجفاء)
وقبلا .. كانتا في وجه قديسة !
ه ه ه
ثلاث سنين
ينازلني ، أنازله

ملت ساخن ، وغبار
عرف على الفم المزموم ،
ثم يرين فوق العشب والأسوار
وكان الفخ قرب الباب
سقطتُ ملوَّث الركبتين والأثواب
أشاحت عنى العينان
وكنت تراب
وكان يدير لى كتفيه فى استهزاء
.. وتعرف أنت
ماذا يفعل المغلوب مثلى
حين يوليه العدو الظهر ؛
ولى كفى بقايا سهم
....

• • •

وطفلاً كنت ، كالأطفال
ومركبة من الكلمات تحملنى لعرش الشمس
وقلدنى الهوى سيفه :
« إلى ذات العيون الخضر »
وكوكبة من الربات مصطفة
« إلى ذات العيون الخضر »

وقريتنا — وراء العين — توراة من الصمت
وثرثرة من الغدران
وصوت الطبل
يدق لينزع القمر القديم نقابه المعتل
وطفل شاحب ينهض
تزغرد نسوةٌ لختانه المدسوس فى جلبابه الأبيض
وفوق الجسر
غلام لاهث يعدو
يمسك مهرة فرت وفى سيقانها يتعلق القيد
... ...
ومركبتى تشد الأفق مخروطية الدرب
« إلى ذات العيون الخضر »
تلال السحب تهرب من ورائى كومة .. كومة
وأنسام تضم عباءتى بأنامل الرحمة
ومن ضمه
إلى ضمه
تنسمنا قلاع الحب والحكمة
ولكنا على الأبواب
أطل نتوء

(كأنف قد تورم فوق وجه العازف السكير)
على العجلات مد لسانه الموبوء
تهاوت فيه مركبتى
فعد ياصاحب الكلمات
كأسياخ الحديد توهجت فى النار
تمر على عيونك أحرف الكلمات
« هوانا مات »
تهاوينا
بلغنا قمة القمة
لنهبط فى انحدار الجانب الآخر
ومن عثره الى عثرة
تلقانا تراب الأرض فى راحاته البرّة
ودارت قهوة الموتى
رأيت يديك هذا اليوم
معطرتين ، ناعمتين
ولكنى رأيت على أظافرك الدم الملعم
وفى المجرى الذى ينساب فى النهدين
مددت يدك قبيل النوم

عثرت على حطام الخنجر المسموم والقفاز !!

يا وجهها

ـت صـى ـن نلتقى .. سهوا
ـ ـتـ ضحكك
ـ ـجهه تخلوا

° ° °

ـ ـحى سميته : شدوا
ـ قـ م أجلك ؟
صحى على شفة الصبا .. لغوا

° ° °

ـ ـ كا أهوى
ـحـ عنى الدفء والحلوى
ـحى تبث سماتك الشجوا
ـ مرتعدك

° ° °

ـ حيا أعدك

الصيف فيك يعانق الصحوا
عيناك ترتخيان فى أرجوحة
والثغر مرتعش بلا مأوى
وعذابه : سلوى
إن جئت أنفض عنده الشكوى

• • •

فى الليل افتقدك
فتضىء لى قسماتك النشوى
تأتى خجول البوح مزهوا
وعلى ذراع الشوق استندك
وأحس فى وجهى لظى الأنفاس
حين يلفنى رغدك !
وأنام !
تحملنى رؤاك لنجمة قصوى
نترفق الخطوا
نحكى ، فأرشف همسك الرخوا
ويهزنى صحوى .. فافتقدك
لكن بلا جدوى
بلا جدوى !

ـ يجبون الحلوا

ـ في مجلب السلوى

ـ ت لا تحوى

و ت الحلوا

ـ حتى منك

• • •

ـ يجبها الحلوا

ـ ت تخضك

ـ ت تخضك

مقتل القمر !

.. وتناقلوا النبأ الأليم على بريد الشمس
فى كل المدينة :
« قتل القمر » !
شهدوه مصلوباً تدلى رأسه فوق الشجر !
نهب اللصوص قلادة الماس الثمينة
من صدره !
تركوه فى الأعواد ،
كالأسطورة السوداء فى عينى ضرير
ويقول جارى :
ــ « كان قديساً ، لماذا يقتلونه ؟ »
وتقول جارتنا الصبية :
ــ « كان يعجبه غنائى فى المساء
وكان يهدينى قوارير العطور
فبأى ذنب يقتلونه ؟
هل شاهدوه عند نافذتى ــ قبيل الفجر ــ يصغى للغناء ؟ »
....

ـــ ـحت من كل العيون
كـ لأجـ ـ أطفال القمر
ـ ـ ـ
ـ ـ
ـ بيت لحاس .. مات !
ـ ـ .
ـ ـ لأيدي التي غدرت به
ـ ـ يستمع لي ،
ـ مت !

. . .

ـ ـ
ـت جفنيه على عينيه ..
ـ لا يرى من فارقوه !
ـرجت من باب المدينة
ـ :
ـ أبناء قريتنا أبوكم مات
قد قتله أبناء المدينة
ذرفوا عليه دموع إخوة يوسف
وتفرقوا

تركوه فوق شوارع الأسفلت والدم والضغينة
يا اخوتى : هذا أبوكم مات !
ــ ماذا ؟ لا .. أبونا لا يموت
بالأمس طول الليل كان هنا
يقص لنا حكايته الحزينة !
ــ يا اخوتى بيدىّ هاتين احتضنته
أسبلت جفنيه على عينيه حتى تدفنوه !
قالوا : كفاك ، اصمت
فانك لست تدرى ما تقول
قلت : الحقيقة ما أقول
قالوا : انتظر
لم تبق إلا بضع ساعات ..
ويأتى !

• • •

حط المساء
وأطل من فوق القمر
متألق البسمات ، ماسىّ النظر
ــ يا اخوتى هذا أبوكم ما يزال هنا
فمن هو ذلك الملقى علىّ أرض المدينة ؟

قالوا : غريب

ظنه الناس القمر

قتلوه ، ثم بكوا عليه

ورددوا « قتل القمر »

لكن أبونا لايموت

أبداً أبونا لا يموت !

شيء يحترق

شيء في قلبي يحترقُ
إذ يمضي الوقت .. فنفترقُ
ونمد الأيدي
يجمعها حب
وتفرقها .. طرقُ

• • •

.. ولأنت جواري ضاجعة
وأنا بجوارك ، مرتفق
وحديثك يغزله مرح
والوجه .. حديث متسق
ترخين جفونا
أغرقها سحر
فطفا فيها الغرق
وشبابك حانٍ جبليٌّ
أرز ، وغدير ينبثق

وبيد دهبي وحدى
مصطبح منه ومغتبق
وتغوص بقلبى نشوته
تدفعنى فيكِ .. فتلتصق
وأمد يدىّ معربدتين
فثوبك فى كفى ..
مزق
وذراعك يلتف
ونهر من أقصى الغابة يندفق
وأضمك
شفة فى شفة
فيغيب الكون ، وينطبق
....
وتموت النار
فنرقبها
بجفون حار بها الأرق
خجلى !
وشفاهك ذائبة
وثمارك نشوى تندلق

ونعود نثرثر
كبحيرات هادئة
غطاها الورق
ويمر الوقت فلا ندرى
ويقيم محافله الشفق
وتدق الساعة معلنة
فيهب بنا صحو قلق
ويحين وداع
وقتى
وأراه كحلم ينسحق
يرتد الصمت لموضعه
ويعود إلى الأذن الحلق
وتمد الأيدى
راغمة
نتشاكى العتب
وتنزلق !
وأحس بشىء فى صدرى
شىء .. كالفرحة
يحترق !

قالت

قالت : تعال إلىّ
واصعد ذلك الدرج الصغير
قلت : القيود تشدنى
والخطو مضنى لا يسير
مهما بلغت فلست أبلغ ما بلغتِ
وقد أخور
درج صغير
غير أن طريقه .. بلا مصير
فدعى مكانى للأسى
وامضى الى غدك الأمير
فالعمر أقصر من طموحى
والأسى قتل الغدا

• • •

قالت : سأنزل
قلت : يا معبودتى لا تنزلى لى

قالت : سأنزل
قلت : خطوك منته فى المستحيل
ما نحن ملتقيان
رغم توحد الأمل النبيل
... ...
نزلت تدق على السكون
رنين ناقوس ثقيل
وعيوننا متشابكات فى أسى الماضى الطويل
تخطو إلىّ
وخطوها ما ضلّ يوماً عن سبيل
ويكى العناق
ولم أجد إلا الصدى
إلا الصدى

ماريا

ماريّا ، يا ساقية المشرب
الليلة عيد
لكنا نخفى جمرات التنهيد !
صبى النشوة نخباً .. نخبا
صبى حبا
قد جئنا الليلة من أجلك
لنريح العمر المتشرد خلف شعاع الغيب المهلك
فى ظل الأهداب الإغريقية !
ما أحلى استرخاءة حزن فى ظلك
فى ظل الهدب الأسود
....
ــ ماذا يا ماريّا ؟
ــ الناس هنا كالناس هنالك فى اليونان
بسطاء العيشة ، محبوبون
ــ لا يا ماريّا

ناس هنا — فى المدن الكبرى — ساعات
لا تتخلف
لا تتوقف
لا تتصرف
آلات ، آلات ، آلات
كُفى يا ماريّا
نحن نريد حديثاً نرشف منه النسيان !
....
ماذا يا سيدة البهجة ؟
العام القادم فى بيتى زوجة ؟!
قد ضاعت يا ماريا من كنت أُود
ماتت فى حضن آخر
لكن ما فائدة الذكرى
ما جدوى الحزن المقعد
نحن جميعاً نحجب ضوء الشمس ونهرب
كفى يا ماريّا
نحن نريد حديثاً نرشف منه النسيان
....
قولى يا ماريّا

أوَما كنت زماناً طفلة
يلقى الشعر على جبهتها ظله
من أول رجل دخل الجنة واستلقى فوق الشطآن
علقت فى جبهته من ليلك خصلة
فضَّ الثغر بأول قبلة
أوَما غنيت لأول حبّ
غنينا يا ماريّا
أغنية من سنوات الحب العذب
....
. ...
....
ما أحلى النغمة
لتكاد تترجم معناها كلمة .. كلمة
غنيها ثانيةً .. غنى
(أوف .
لا تتجهم
ما دمت جوارى ، فلتبسم
بين يديك وجودى كنز الحب
عيناى الليل .. ووجهى النور

شفتاى نبيذ معصورَ
صدرى جنتك الموعودة
وذراعاى وساد الرب
فتبسم للحب ، تبسم
لا تتجهم
لا تتجهم)

....

ما دُمت جوارك يا ماريّا لن أتجهم
حتى لو كنت الآن شباباً كان
فأنا مثلك كنت صغيراً
أرفع عينى نحو الشمس كثيراً
لكنى منذ هجرت بلادى
والأشواق
تمضغنى ، وعرفتُ الأطراق
مثلك منذ هجرت بلادك
وأنا أشتاق
أن أرجع يوماً ما للشمس
أن يورق فى جدبى فيضان الأمس

....

قولى يا ماريّا
العام القادم يصير كلٌّ منا أهله
كى أرجع طفلاً .. وتعودى طفلة
لكنا الليلة محرومون
صبى أشجانك نخباً .. نخبا
صبى حبا
فأنا ورفاقى
قد جئنا الليلة من أجلك !

استريحى
ليس للدور بقية
انتهت كل فصول المسرحية
فامسحى زيف المساحيق
ولا ترتدى تلك المسوح المريمية
واكشفى البسمة عما تحتها
من حنين .. واشتهاء .. وخطيه
كنت يوماً فتنه قدستها
كنت يوماً
ظمأ القلب .. وريه

° ° °

لم تكونى أبداً لى
إنما كنت للحب الذى من سنتين
قطف التفاحتين الحلوتين
ثم ألقى

بقايا القشرتين
وبكى قلبك حزناً
فغدا دمعةً حمراء
بين الرئتين
وأنا ؛ قلبى منديل هوى
جففت عيناك فيه دمعتين
ومحت فيه طلاء الشفتين
ولوته ..
فى ارتعاشات اليدين
كان ماضيك جداراً فاصلاً بيننا
كان ضلالاً شبحية
فاستريحى
ليس للدور بقية
أينما نحن جلسنا
ارتسمت صورة الآخر فى الركن القصى
كنت تخشين من اللمسة
أن تمحى لمسته فى راحتى
وأحاديثك فى الهمس معى
إنما كانت إليه ..

لا إليَّ
فاستريحى الآن
لم يبق سوى حيرة السير على المفترق
كيف أقصيك عن النار
وفى صدرك الرغبة أن تحترق ؟
كيف أدنيك من النهر
وفى قلبك الخوف وذكرى الغرق ؟
أنا أحببتك حقاً
إنما لست أدرى
أنا .. أم أنت الضحية ؟
فاستريحى ، ليس للدور بقية

العار الذى نتقيه

هذا الذى يجادلون فيه
قولى لهم مَن أمه ، ومَن أبوه
أنا وأنت ..
حين أنجبناه ألقيناه فوق قمم الجبال كى يموت !
لكنه ما مات .
عاد إلينا عنفوان ذكريات
لم نجترىء أن نرفع العيون نحوه
لم نجترىء أن نرفع العيون
نحو عارنا المميت

• • •

ها طفلنا أمامنا غريب
ترشقه العيون والظنون بازدرائها
ونحن لا نجيب
(وربما لو لم يكن من دمنا
كنا مددنا نحوه اليدا

لكنه .. ما زال يقطع الدروب
يقطع الدروب
وفي عيوننا الأسى المريب

• • •

« أوديب » عاد باحثاً عن اللذين ألقياه للردى
نحن اللذان ألقياه للردى
وهذه المرة لن نضيعه
ولن نتركه يتوه
ناديه
قولى انك أمه التى ضنت عليه بالدفء
وبالبسمة والحليب

قولى له أنى أبوه
(هل يقتلنى ؟) أنا أبوه
ما عاد عاراً نتقيه
العار : أن نموت دون ضمة
من طفلنا الحبيب
من طفلنا « أوديب »

رسالة من الشمال

بعمرٍ ــ من الشوك ــ مخشوشنٍ
بعرق من الصيف لم يسكنِ
بتجويف حبٍ ، به كاهن
له زمن .. صامت الأرغن :
أعيش هنا
لا هُنَا ، إننى
جهلتُ بكينونتى مسكنى
غدى : عالم ضل عنى الطريق
مسالكه للسدى تنحنى
علاماته .. كانثيال الوضوء
على دنسٍ منتنٍ .. منتن
تفحّ السواسنُ سم العطور
فأكفر بالعطر والسوسن
وأنصد وهمى .. لأمتصه
فيمتصنى الوهم ، يمتصني ..

ه ه

ملاكى : أنا فى شمال الشمال
أعيش .. ككأسٍ بلا مدمن
ترد الذباب انتظاراً ، وتحسو
جمود موائدها الخوّنِ
غريب الحظايا ، بقايا الحكايا
من الليل لليل تستلنى
أرش ابتسامتى على كل وجهٍ
توسد لى دُهنه الليّن
ويجرحنى الضوء فى كل ليلٍ
مريبِ الخطى ، صامت ، محزن
مريت به — كالشعاع الضئيل —
الى حيث لا عابرٌ ينثنى
هى اسكندرية بعد المساء
شتائية القلب والمحضن
شوارعها خاويات المدى
سوى : حارسٍ لى لا يعتنى
ودورة كلبين كى ينسلا
ورائحة الشبق المزمن
ملاكى .. ملاكى .. تساءل عنكِ

اغتراب التفرد فى مسكنى
سفحت لك اللحن عبر المدى
طريقاً إلى المبتدأ ردنى
وعيناك : فيروزتان تضيئان
لى خاتم الله .. كالأعين
تمدان لى فى المغيب الجناح
مدىً ، خلف خلف المدى الممعن
سألتهما فى صلاة الغروب
عن الحب ، والموت ، والممكن
ولم تذكرا لى سوى خلجةٍ
من الهدب قلت لها : هيمنى !
هواى له الشمس تنهيدة
إلى اليوم بالموت لم تؤمن
وكانت لنا خلوة ، إن غدا
لها الخوف أصبح فى مأمن
مقاعدها ما تزال النجوم
تحج إلى صمتها المؤمن
حكينا لها ، وقرأنا بها
بصوت على الغيب مستأذن

دنوًا ، دنوًا ففى جعبتى
حكايات حب سنى ، سنى
صقلت به الشمس حتى غدت
مرايا مساء لتزينّنى
وصفت لك النجم عقداً من
الماس شع على صدرك المفتنى
أردتك قبل وجود الوجود
وجوداً لتخليده لم أن
تغربت عنك ، لحيث الحياة
مناجم حلم بلا معدن
ودورة كلبين كى ينسلا
ورائحة الشبق المزمن

• • •

ملاكى : ترى ما يزال الجنوب
مشارق للصيف لم تعلن
ضممت لصدرى تصاويرنا
تصاوير تبكى على المقتنى
سآتى إليك أجر المسير
خطى فى تصلبها المذعن

سآتى إليك كسيف تحطم
فى كف فارسه المثخن
سآتى إليك نحيلاً .. نحيلا
كخيط من الحزن لم يحزن

٥ ٥ ٥

أنا قادم من شمال الشمال
لعينين ــ فى موطنى ــ موطنى !

أوتوجراف

لن أكتب حرفاً فيه
فالكلمة ــ إن تكتب ــ لا تكتب
من أجل الترفيه
(والأوتوجراف الصامت تنهدل الكلمات عليه ،
تحييه
وتطرز كل مثانيه !
ماضيك
ــ وماضى الأوتوجراف ــ
بقايا شوق مشبوه
بصمات الذكرى فيك ، وفيه
وخطى العشاق المحمومة أدمت كل دواليه
لكنى أطرد كل ذباب الماضى عن بالى
فدعيه
غيرى قد يصبح سطراً من ورق
يقلبه من يجهله أو من يدريه

غيري قد ينبش تابوتاً براق اللون
تعفن خافيه
لكني أطرد كل ذباب الذكرى
عن غدي المشدوه
عن ثوبي ، وطعامي ، وفراشي
عن خطوة تيهي
....
يا أصغر من كلماتي
لن أكتب فيه
فخطى العشاق المحمومة أدمت كل دواليه !

شبيهتها

انتظرى !.

ما اسمك ؟

يا ذات العيون الخضر والشعر الثرى

أشبهت فى تصورى

(بوجهك المدور)

حبيبةً أذكرها .. أكثر من تذكرى

يا صورة لها على المرآة ، لم تنكسر

حبيبتى ــ مثلك ــ

لم تشبه جميع البشر

عيونها حدائق حافلة بالصور

أبصرتها اليوم بعينيك

اللتين صبتا فى عُمُرى ..

طفولة .. منذ اتزان الخطو لم تنحسر

• • •

يا ظل صيف أخضر

تصورى
كم أشهرٍ وأشهر
مرت ولسنا نلتقى
مرت .. ولم نخضوضرِ
الماس فى مناجمى
مشوه التبلورِ
والذكريات فى دمى
عاصفة التحرر
كرقصة نارية من فتيات الغجرِ

. . . .

لكننى حين رأيت الآن صورة لها
فى مهجرى
أيقنت أن ماسنا ما زال
حىّ الجوهر
وأننا سنلتقى ..
رغم رياح القدر
وأننى فى فمك المستضحك المستبشر
أغنية للقمر
أغنية ترقص فيها القرويات

فى ليالى السمر

. . .

يا ظل صيف أخضر
تصورى
كم أشهرٍ وأشهر
مغترباً عن العيون الخضر والشعر الغرى

العينان الخضراوان

العينان الخضراوان
مروحتان
في أروقة الصيف الحران
أغنيتان مسافرتان
أبحرتا من نايات الرعيان
بعبير حنان
بعزاء من آلهة النور إلى مدن الأحزان
سنتان
وأنا أبني زورق حب
يمتد عليه من الشوق شراعان
كي أبحر في العينين الصافيتين
إلى جزر المرجان
ما أحلى أن يضطرب الموج فينسدل الجفنان
وأنا أبحث عن مجداف
عن إيمان !

ه ه ه

فى صمت « الكاتدرائيات » الوسنان
صور « للعذراء » المسبلة الأجفان
يا من أرضعت الحب صلاة الغفران
وتمطى فى عينيك المسبلتين
شبابُ الحرمان
رُدّى جفنيك
لأبصر فى عينيك الألوان
أهما خضراوان
كعيون حبيبى ؟
كعيون يبحر فيها البحر بلا شطآن
يسأل عن حبّ
عن ذكرى
عن نسيان !
قلبى حران ، حران
والعينان الخضراوان
مروحتان !

Petit Terianor
(الملهى الصغير)

لم يعد يذكرنا حتى المكان !
كيف هنا عنده ؟
والأمس هان ؟
قد دخلنا ..
لم تُشر مائدةٌ نحونا !
لم يستضفنا المقعدان !!
الجليسان غريبان
فما بيننا إلا . ظلال الشمعدان !
أنظرى :
قهوتنا باردة
ويدانا ـــ حولها ـــ ترتعشان
وجهك الغارق فى أصباغه
وجهى الغارق فى سحب الدخان
رُسِمَا

(ما ابتسما !) .
فى لوحة خانت الرسامَ فيها ..
لمستان !!
تُسدل الأستار فى المسرح
فلتضىء الأنوار
إن الوقت حان
أمن الحكمة أن نبقى ؟
سَدىً !!
قد خسرنا فرسينا فى الرهان !
قد خسرنا فرسينا فى الرهان
مالنا شوط مع الأحلام
ثان !!
نحن كنا ها هنا يوماً
وكان
وهج النور علينا مهرجان
يوم أن كنا صغاراً
نمتطى صهوة الموج
إلى شط الأمان
كنتُ طفلاً لا يعى معنى الهوى

وأحاسيسك مرخاة العنان
قطة مغمضة العينين
فى دمك البكر لهيب الفوران
عامنا السادس عشر :
رغبة فى الشرايين
وأعواد لدان
هاهنا كلّ صباح نلتقى
بيننا مائدة
تندى .. حنان
قدمانا تحتها تعتنقان
ويدانا فوقها تشتبكان
إن تكلمت :
ترنّمت بما همسته الشفتان الحلوتان
وإذا ما قلتُ :
أصغت طلعةٌ حلوةٌ
وابتسمت غمازتان !
أكتب الشعر لنجواك
(وإن كان شعراً يبغائىّ البيان)
كان جمهورى عيناك !

إذا قلته : صفقتا تبتسمان

ولكن ينصحنا الأهل

فلا نصحهم عزّ

ولا الموعد هان

لم نكن نخشى إذا ما نلتقى

غير ألّا نلتقي فى كل آن

ليس ينهانى تأنيب أبى

ليس تنهاك عصا من خيزران !!

الجنون البكر ولّى

وانتهت سنة من عمرنا

أو .. سنتان

وكما يهدأ عنف النهر

إن قارَبَ البحر

وقاراً .. واتزان

هدأ العاصف فى أعماقنا

حين أفرغنا من الخمر الدنان

قد بلغنا قمة القمة

هل بعدها إلا .. هبوط العنفوان

افترقنا ..

(دون أن نغضب)
لا يغضب الحكمةَ صوتُ الهذيان
ما الذى جاء بنا الآن ؟
سوى لحظة الجبن من العمر الجبان
لحظة الطفل الذى فى دمنا
لم يزل يحبو ..
ويكبو ..
فيُعان !
لحظة فيها تناهيد الصبا
والصبا عهد إذا عاهد : خان
أمن الحكمة أن نبقى ؟
سدىً
قد خسرنا فرسينا فى الرهان

• • •

قبلنا يا أُخت فى هذا المكان
كم تناجى ، وتناغى عاشقان
ذهبا
ثم ذهبنا
وغداً ..

يتساق الحب فيه آخران !
فلندعْهُ لهما
ساقية ..
دار فيها الماءُ
مادار الزمان !!

البكاء بين يدي زرقاء اليمامة

دياجة

آه .. ما أقسى الجدار
عندما ينهض في وجه الشروق .
ربما ننفق كل العمر .. كي ننقب ثغره
ليمر النور للأجيال .. مره !
... ...
ربما لو لم يكن هذا الجدار ..
ما عرفنا قيمة الضوءِ الطليق !!

بكائية ليلية

إلى « مازن جودت أبو غزالة »
. عرفته في سنوات التساؤل .
. رحل مع « العاصفة » .

للوهلة الأولىٰ
قرأتُ في عينيه يومَه الذى يموتُ فيه .
رأيتُه فى صحراء « النقب » مقتولا ..
منكفئاً .. يغرز فيها شفتيه ،
وهى لا تردُّ قبلةً .. لفيه !
نتوه فى القاهرة العجوز ، ننسى الزمنا
نفلت من ضجيج سياراتها ، وأغنيات المتسولين
تُظلّنا محطةُ المترو مع المساء .. متعبين .
وكان يبكى وطنا .. وكنتُ أبكى وطنا
نبكى إلى أن تنضب الأشعار
نسألها : أين خطوط النار ؟
وهل تُرى الرصاصة الأولى هناك .. أم هنا ؟

• • •

والآن .. ها أنا

أظل طول الليل لا يذوق جفني وَسَنا

أنظر فى ساعتىَ الملقاة فى جوارى

حتى تجيءَ . عابراً من نقط التفتيش والحصارِ

تتسع الدائرة الحمراء فى قميصك الأبيض ، تبكى شجر

من بعد أن تكسَّرتْ فى « النقب » رايتُكْ !

تسألنى : « أين رصاصتُكْ ؟ »

« أين رصاصتُكْ »

ثم تغيبُ : طائراً .. جريحا

تضرب أفقك الفسيحا

تسقط فى ظلال الضفَّة الأخرى ، وترجو كفنا !

وحين يأتى الصبحُ — فى المذياع — بالبشائر

أزيح عن نافذتى الستائر ،

فلا أراك .. !

أسقط فى عارى . بلا حراك

اسأل إن كانت هنا الرصاصةُ الأولى ؟

أم أنها هناك ؟ ؟

(١٩٦٨)

كلمات سبارتكوس الأخيرة

(مزج أول) :

الجد للشيطان .. معبود الرياحْ
من قال « لا » فى وجهِ من قالوا « نَعَمْ »
من عَلَّم الانسانَ تمزيقَ العدمْ
من قال « لا » .. فلم يَمُتْ ،
وظل روُحاً أبديّة الألمْ !

(مزج ثان) :

مُعَلَّقٌ أنا على مشانق الصباحْ
وجبهتى — بالموت — محنيَّةْ
لأننى لم أحْنها .. حَيَّةْ !

... ...

ياإخوتى الذين يعبرون فى الميدان مطرقينْ
منحدرين فى نهاية المساءْ

فى شارع الاسكندر الأكبرْ :
لا تخجلوا .. ولترفعوا عيونكم إلىّْ
لأنكم معلقون جانبى .. على مشانق القيصرْ .
فلترفعوا عيونكم إلىّْ
لربما .. إذا التقت عيونُكم بالموتِ فى عَيْنَىّْ :
يبتسم الفناءُ داخلى .. لأنكم رفعتم رأسَكم .. مرَّهْ !
« سيزيفُ » لم تعد على أكتافه الصخرهْ
يحملها الذين يولدون فى مخادع الرقيقْ .
والبحر .. كالصحراء .. لا يروى العطشْ
لأن من يقولُ « لا » لا يرتوى إلاّ من الدموعْ !
.. فلترفعوا عيونكم للثائر المشنوقْ
فسوف تنتهون مثله .. غدا .
وقبِّلوا زوجاتكم .. هنا .. على قارعة الطريقْ
فسوف تنتهون ها هنا .. غدا .
فالانحناءُ مُرّ ..
والعنكبوتُ فوق أعناق الرجال ينسج الردى
فقبِّلوا زوجاتكم .. إنى تركتُ زوجتى بلا وداع

وإن رأيتم طفلىَ الذى تركتُه على ذراعها بلا ذراعْ
فعلِّموه الانحناءْ !
علموه الانحناءْ !
الله . لم يغفر خطيئةَ الشيطانِ حين قال لا !
والودعاءُ الطيِّبونْ ..
هم الذين يَرِثون الأرضَ فى نهاية المدى
لأنهم .. لا يشنقون !
فعلِّموه الانحناء
وليس ثَمَّ من مَفَرْ .
لا تحلُموا بعالمٍ سعيدْ
فخلف كل قيصرٍ يموتُ : قيصرٌ جديد !
وخلف كل ثائرٍ يموتُ : أحزانٌ بلا جدوى ..
ودمعةٌ سُدى !

(مزج ثالث) :

ياقيصر العظيمَ : قد أخطأْتُ .. إنّى أعترف
دعنى — على مشنقتى — أَلْثُمْ يَدَكْ
ها أنذا أُقبِّل الحبلَ الذى فى عُنُقى يلتفّ

فهو يداك ، وهو مجدُك الذى يجبرنا أن نعبدكْ
دعنى أكفّرْ عن خطيئتى
أمنحْك ــ بعد ميتتى ــ جمجمتى
تصوغُ منها لكَ كأساً لشرابكَ القوىّ
.. فان فعلتَ ما أريدْ :
إن يسألوك مرةً عن دمىَ الشهيدْ
وهل تُرى منحتنى « الوجود » كى تسلُبنى « الوجودْ »
فقل لهم : قد ماتَ .. غيرَ حاقِدٍ علىّ
وهذه الكأسُ ــ التى كانت عظامُها جمجمتَهْ ــ
وثيقة الغفران لى .
ياقاتلى : إنى صفحتُ عنكْ ..
فى اللحظة التى استرحتَ بعدها مِّنى :
استرحتُ منكْ !
لكننى .. أُوصيكَ إن تشأْ شنق الجميعْ
أن ترحم الشجرْ !
لا تقطع الجذوع كى تنصبها مشانقا
لا تقطع الجذوع

فربما يأتى الربيع
« والعامُ عامُ جوع »
فلن تشم فى الفروع .. نكهةَ الثمر !
وربما يمرُّ فى بلادنا الصيفُ الخَطِرْ
فتقطع الصحراء . باحثاً عن الظلالْ
فلا ترى سوى الهجير والرمال والهجير والرمال
والظمأ النارىّ فى الضلوع !
ياسيد الشواهد البيضاء فى الدجى ..
ياقيصر الصقيعْ !

(مزج رابع) :

ياإخوتى الذين يعبرون فى الميدان فى انحناءْ
منحدرين فى نهاية المساءْ
لا تحلموا بعالم سعيدْ ..
فخلف كل قيصرٍ يموت : قيصرٌ جديد .
وإن رأيتم فى الطريق « هانيبال »
فأخبروه أننى انتظرته مدىً على أبواب « روما » المجهدة

وانتظَرَتْ شيوخ روما — تحت قوسِ النصر — قاهر الأبطال
ونسوةُ الرومان بين الزينة المعربدة
ظللنَ ينتظرن مقدمَ الجنودْ ..
ذوى الرءوس الأطلسيَّة الجعدة
لكن « هانيبالَ » ما جاءت جنوده المجندة
فأخبروه أننى انتظرتُه .. انتظرتُه ..
لكنه لم يأت !
وأننى انتظرتُهُ .. حتى انتهيتُ فى حبالِ الموت
وفى المدى : « قرطاجةٌ » بالنار تحترقْ
« قرطاجةٌ » كانت ضميرَ الشمسِ : قد تعلَّمتْ معنى الركوع
والعنكبوتُ فوق أعناق الرجالْ
والكلماتُ تختنقْ
يا اخوتى : قرطاجةُ العذراءُ تحترقْ
فقبِّلوا زوجاتكم ،
إنى تركت زوجتى بلا وداع
وإن رأيتم طفلىَ الذى تركتُه على ذراعها .. بلا ذراع
فعلِّموه الانحناءْ ..

علّموه الانحناءْ ..
علّموه الانحناءْ ..

(ابريل ١٩٦٢)

الأرض .. والجرح الذى لا ينفتح

الأرض مازالت ، بأذنيها دمٌ من قرطها المنزوعِ ،
قهقهةُ اللصوص تسوق هودجها .. وتتركُها بلا زادٍ ،
تشدُّ أصابعَ العطش المميتِ على الرمالِ ،
تضيع صرختُها بحمحمة الخيولْ .
الأرضُ ملقاةٌ على الصحراء .. ظامئة ،
وتلقى الدلو مراتٍ .. وتخرجه بلا ماءٍ !
وتزحف فى لهيب القيظ ..
تسأل عن عذوبة نهرها ..
والنهر سمَّمَهُ المغولْ
وعيونُها تخبو من الاعياءِ ، تستسقى جذورَ الشوكِ ،
تنتظرُ المصيرَ المرّ .. يطحنها الذبولْ

• • •

من أنت ياحارسْ ؟

إنى أنا الحجّاج ..
عصّبنى بالتاج ..
تشرينُها القارسْ !

. . .

الأرض تُطوىٰ فى بساط « النفط » ،
تحملها السفائنُ نحو « قيصرَ » كى تكون إذا تفتّحت اللفائف :
رقصةً .. وهديةً للنار فى أرض الخطاهْ .
دينارها القصدير مصهورٌ على وجناتها .
زنّارها المحلول يسأل عن زناة الترك ،
والسيّاف يجلدها ! وماذا ؟ بعد أن فقدت بكارتها ..
وصارت حاملاً فى عامها الألفىّ من ألْفين من عشاقها !
لا النيل يغسل عارها القاسى .. ولا ماء الفرات !
حتى لزوجة نهرها الدموى ،
والأموى يقعى فى طريق النبع :
« .. دون الماء رأسك ياحسينُ .. »
وبعدها يتملكون ، يضاجعون أراملَ الشهداء ،

ولا يتورعون ، يؤذنون الفَجْرَ .. لم يتطهَّروا من رجسهم ،
فالحق مات !

• • •

هل ثُبِّت الثقفىّ
قناعَهُ المهزوزْ ؟
فقد مضى تموزْ ..
بوجهه العربىّ !

• • •

أحببت فيك المجد والشعراءَ ..
لكنَّ الذى سرواله من عنكبوت الوهم :
يمشى فى مدائنك المليئةِ بالذبابْ
يسقى القلوب عصارةَ الخدر المنمَّقِ ،
والطواويس التى نزعت تقاويم الحوائطِ ،
أوقفت ساعاتها ،
وتجشأت بموائد السفراء ..
تنتظر النياشين التى يسخو بها السلطانُ ..
فوق أكابر الأغوات منهم !
ياسماء :

أكلَّ عام : نجمةٌ عربيةٌ تهوى ..
وتدخل نجمةٌ برج البرامك ! ؟
ما تزال مواعظُ الخصيان باسم الجالسين على الحرابْ ؟
وأراكِ .. و« ابن سلول » بين المؤمنين بوجهه القُزَحيِّ ..
يسرى بالوقيعة فيكِ ،
والأنصارُ واجمةٌ ..
وكل قريشَ واجمةٌ ..
فمن يهديه للرأى الصوابْ ؟ !

•••

ملثَّما يخطو ..
قد شوّهته النارْ !
هل يُصلح العطارْ
ما أفسد النفطُ ؟

• • •

لم يبق من شيء يقالْ .
يا أرضُ :
هل يلدُ الرجالْ ؟

(مايو ١٩٦٦)

البكاء بين يدى زرقاء اليمامة

أيتها العرافة المقدَّسةْ ..
جئتُ إليك .. مثخناً بالطعنات والدماءْ
أزحف فى معاطف القتلى ، وفوق الجثث المكدّسة
منكسر السيف ، مغبَّر الجبين والأعضاءْ .
أسأل يازرقاءْ ..
عن فمكِ الياقوتِ عن ، نبوءة العذراء
عن ساعدى المقطوع .. وهو مايزال ممسكاً بالراية المنكَّسة
عن صور الأطفال فى الخوذات .. ملقاةً على الصحراء
عن جارىَ الذى يَهُمُّ بارتشاف الماء ..
فيثقب الرصاصُ رأسَه .. فى لحظة الملامسة !
عن الفم المحشوِّ بالرمال والدماء !!
أسأل يازرقاء ..
عن وقفتى العزلاء بين السيف .. والجدارْ !
عن صرخة المرأة بين السَّبى . والفرارْ ؟

كيف حملتُ العار ..
ثم مشيتُ ؟ دون أن أقتل نفسي ؟ ! دون أن أنهار ؟ !
ودون أن يسقط لحمي .. من غبار التربة المدنسة ؟ !
تكلّمي أيتها النبية المقدسة
تكلمي .. باللهِ .. باللعنةِ .. بالشيطانْ
لا تغمضي عينيكِ ، فالجرذان ..
تلعقُ من دمي حساءَها .. ولا أردُّها !
تكلمي ... لشدَّ ما أنا مُهان
لا الليل يُخفي عورتي .. ولا الجدران !
ولا اختبائي في الصحيفة التي أشدُّها ..
ولا احتمائي في سحائب الدخان !
.. تقفز حولي طفلةٌ واسعةُ العينين .. عذبةُ المشاكسة
(– كان يَقُصُّ عنك يا صغيرتي .. ونحن في الخنادقْ
فنفتح الأزرار في ستراتنا .. ونسند البنادقْ
وحين مات عَطَشاً في الصحراء المشمسة ..
رطَّب باسمك الشفاه اليابسة ..
وارتخت العينان !)

فأين أخفى وجهىَ المتَّهمَ المدان ؟
والضحكةُ الطروب : ضحكته ..
والوجهُ .. والغمازتانْ ! ؟

• • •

ابنتها النبية المقدسة ..
لا تسكتى .. فقد سَكَتُّ سَنَةً فَسَنَةً ..
لكى أنال فضلة الأمانْ
قيل لىَ « اخرسْ .. »
فخرستُ .. وعميت .. وائتممتُ بالخصيان !
ظللتُ فى عبيد (عبسٍ) أحرس القطعان
أجتزُّ صوفَها ..
أردُّ نوقها ..
أنام فى حظائر النسيان
طعامىَ : الكسرةُ .. والماءُ .. وبعض التمرات اليابسة .
وها أنا فى ساعة الطعانْ
ساعةَ أن تخاذل الكماةُ .. والرماةُ .. والفرسانْ
دُعيت للميدان !

أنا الذى ما ذقتُ لحمَ الضان ..
أنا الذى لا حولَ لى أو شأن ..
أنا الذى أقصيت عن مجالس الفتيان ،
أدعى الى الموت .. ولم أدع الى المجالسة !!
تكلمى أيتها النبية المقدسة
تكلمى .. تكلمى ..
فها أنا على التراب سائلٌ دمى
وهو ظمىءٌ .. يطلب المزيدا .
أسائل الصمتَ الذى يخنقنى :
« ما للجمال مشيُها وئيدا .. ؟! »
« أجندلاً يحملن أم حديدا .. ؟! »
فمن تُرى يصدُقنى ؟
أسائل الركَّع والسجودا
أسائل القيودا :
« ما للجمال مشيُها وئيدا .. ؟! »
« ما للجمال مشيُها وئيدا .. ؟! »

• • •

أيتها العرّافة المقدسة ..
ماذا تفيد الكلمات البائسة ؟
قلتِ لهم ما قلتِ عن قوافل الغبارْ ..
فاتهموا عينيكِ ، يازرقاء ، بالبوارْ !
قلتِ لهم ما قلتِ عن مسيرة الأشجار ..
فاستضحكوا من وهمكِ الثرثار !
وحين فُوجئوا بحدِّ السيف : قايضوا بنا ..
والتمسوا النجاةَ والفرار !
ونحن جرحى القلبِ ،
جرحى الروحِ والفم .
لم يبق إلا الموتُ ..
والحطامُ ..
والدمارْ ..
وصبيةٌ مشرّدون يعبرون آخرَ الأنهارْ
ونسوةٌ يسقن فى سلاسل الأسرِ ،
وفى ثياب العارْ
مطأطئات الرأس .. لا يملكن إلا الصرخات التاعسة !
....

ها أنت يازرقاءْ
وحيدةً ... عمياءْ !
ومازالت اغنياتُ الحبِّ .. والأضواءْ
والعرباتُ الفارهاتُ .. والأزياءْ !
فأين أخفى وجهيَ المُشَوَّها
كى لا أعكِّر الصفاء .. الأبلهَ .. المموَّها .
فى أعين الرجال والنساءْ !؟
وأنت يازرقاء ..
وحيدة .. عمياء !
وحيدة .. عمياء !

(١٣ ــ ٦ ــ ٦٧)

(جوقة خلفية) صوت)

(١)

(جوقة خلفية)	صوت)
ها نحن يا ايلول	..جون الباكى فى هذا العام
لم ندرك الطعنة	..جمع عنه فى السجن قلنسوة الاعدام
فحلت اللعنة	..سقط من سترته الزرقاء.. الأرقام !
فى جيلنا المخبول !	..يمشى فى الأسواق : يبشر بنبوته الدموية
... ...	..ينة أن وقف على درجات القصر الحجرية
قد حلت اللعنة	..يقول لنا : ان سليمان الجالس منكفئا
	..وق عصاه
فى جيلنا المخبول	قد مات ! ولكنا نحسبه يغفو حين نراه !!
فنحن يا أيلول	..نواه .
لم ندرك الطعنة !	قال .. فكممناه ، فقأنا عينيه الناهلتين
... ...	وسرقنا من قدميه الخفين الذهبيين
	وحشرناه فى أروقة الأشباح المزدحمة

(صوت) :

ونسينا يا ايلول الكلمة .

(جوقة خلفية) :

فحلت اللعنة !

*** (٢) **

في سورية
كانت تتهاوى رايات أمية
فرفعناها علماً علماً .. ووقعنا في أسر الروم
لكنا في طابور الأسرى المهزوم
كنا ننتظر زياد بن أبيه
ليعود ، فينقذنا مما نتسربل فيه .
كنا لبصر وردتنا الصابحة الحمراء
تنمو في شرفة بيت في حلب الشهباء
وظللنا ننتظر .. تطول الأظفار .. ويبيض
السالف
..ذات صباح عاصف
كنا نشرب حين أتتنا الأنباء
.. فتعكر لون الماء !

الأمراء الصم
ماتوا على المداخل
لم يبق إلا « الداخل »
يعبر نهر الدم !
... ...
لم يبق إلا « الداخل »
يعبر نهر الدم !
والأمراء الصم
ماتوا على المداخل
... ...
ماتوا على المداخل
لم يبق إلا « الداخل »

••• (٣) ••

لو زرت دمشق
لوقفت على أبواب « المزه » ولتابعت
الطرق
ودلفت الى غرفات التعذيب ..

(صوت) :
ورأيتك تضحك يا أيلول وأنت على
الأخشاب تدق .
فلقد أبصرتك فى آخر ليلة
مصلوباً تتأرجح فى باب زويلة !
ولمست أصابع قدميك هنيهات ما بين
الدهشة والتكذيب
وحشوت جراحك بتراب الأرض [illegible]
ولفقتك فى الرايات المنكودة
وحملتك حتى وارستك فى مقبرة
الصمت .. وراء الشرق .
لكنى أسمع صوتك فى الليل ؛ تغنى
باأيلول

فى ضجة المذياع
يخف صوت الحق !
فمن يقول الصدق .

(جوقة خلفية) :
كى نرهف الأسماع ؟
... ...
من ذا يقول الصدق
كى نرهف الأسماع ؟
فضجة المذياع
تخفت صوت الحق !
يخفت صوت الحق

تجعل من تجويفات عظام الموتى : قصبات
الأرغول فمن يقول الصدق ؟
فيجيء غناؤك . ممزوجا بنحيب ! ... ...

(الجوقة) : (صوت) :
هذا العام .. ننتظر الريح
أعطينا جرحانا آخر ما يملكه الصيف من
الأنسام من كل ضريح
وبقينا فى المهد المختنق المبحوح . ...
لكنا من كل ضريح من كل ضريح
ننتظر الريح ! ننتظر الريح
... ...

(سبتمبر ١٩٦٧)

السويس

(١)

عرفتُ هذه المدينة الدخانيَّة .
مقهى فمقهى .. شارعاً فشارعاً
رأيت فيها (اليشمكَ) الأسود والبراقعا
وزرتُ أوكار البغاء واللصوصية !
على مقاعد المحطة الحديدية ..
نمت على حقائبي في الليلة الأولى
(حين وجدت الفندق الليليّ مأهولا ؟)
وانقشع الضباب في الفجر .. فكشَّف البيوتَ والمصانعا
والسفن التي تسير في القناة ؛ كالأوزّ ..
والصائدين العائدين في الزوارق البخارية !

• • •

(رأيتُ عمال « السماد » يهبطون من قطار « المحجر » العتيق
يعتصبون بالمناديل الترابيّة
يدندنون بالمواويل الحزينة الجنوبيَّة

ويصبح الشارع .. درباً .. فزقاقاً .. فمضيقْ
فيدخلون فى كهوف الشجن العميقْ
وفى بحار الوهم : يصطادون أسماك سليمان الخرافيَّة !)

• • •

عرفتُ هذه المدينة ؟
سكرت فى حاناتها
جُرحت فى مشاحناتها
صاحبت موسيقارها العجوز فى (تواشيح) الغناءْ
رهنت فيها خاتمى .. لقاء وجبة العشاء
وابتعتُ من « هيلانةَ » السجائر المهرَّبة .
وفى « الكبانُون » سبحتُ
واشتهيت أن أموت عند قوس البحر والسماء !
وسرتُ فوق الشُعَب الصخريَّة المدببة
ألقطُ منها الصَّدَف الأزرقَ والقواقعا .
وفى سكون الليل ؛ فى طريق « بور توفيق »
بكيت حاجتى الى صديق
وفى أثير الشوق : كدت أن أصير .. ذبذبةْ !

(٢)

والآن ؛ وهى فى ثياب الموت والفداءْ

تحصرها النيران .. وهى لا تلينْ
أذكر مجلسى اللاهى .. على مقاهى « الأربعينْ »
بين رجالها الذين ..
يقتسمون خبزها الدامى . وصمتها الحزين
يفتح الرصاصُ — فى صدورهم — طريقنا إلى البقاء .
يسقط الأطفال فى حاراتها
تقبض الأيدى على خيوط « طائراتها »
وترتخى — هامدةً — فى بركة الدماء .
وتأكل الحرائق ..
بيوتها البيضاء والحدائق ..
ونحن ها هنا .. نعضُّ فى لجام الانتظارْ !
نصغى الى أنبائها .. ونحن نحشو فمنا ببيضة الأفطار !
تسقط الأيدى عن الأطباق والملاعقْ
أسقُطُ من طوابق القاهرة الشواهق
أبصر فى الشارع أوجُهَ المهاجرين
أعانق الحنين فى عيونهم .. والذكرياتْ
أعانق المحنة والثباتْ .

... ...

هل تأكل الحرائق

يومها البيضاء والحدائق
بينما تظل هذه « القاهرة » الكبيرة
آمنةً .. قريرة !؟
تضيء فيها الواجهاتُ فى الحوانيت ، وترقص النساء ..
على عظامِ الشهداء !؟

يوميات كهل صغير السنّ

- ١ -

أعرف أن العالم في قلبي .. مات !
لكنني حين يكفّ المذياعُ .. وتنغلق الحجرات :
أنبش قلبي ، أخرج هذا الجسد الشمعيّ
وأسجّيه فوق سرير الآلام .
أفتح فمه ، أسقيه نبيذَ الرغبة
فلعلّ شعاعاً ينبض في الأطراف الباردة الصلبة
لكن .. تتفتت بشرتُه في كفّيّ
لا يتبقى منه .. سوى : جمجمةٍ .. وعظامْ !

- ٢ -

تنزلقين من شعاع لشعاع
وأنت تمشين — تُطالعين — في تشابك الأغصان في الحدائق
حالمةً .. بالصيف في غُرفات شهر العسل القصير في الفنادق
ونزهة في النهر ..
واتكاءةٍ على شراع !

... ...

.. وفى المساء ، فى ضجيج الرقص والتعانق

تنزلقين من ذراعٍ لذراع !

تنتقلين فى العيونْ ، فى الدخان العصبىّ ، فى سخونة الإيقاع

وفجأةً .. ينسكب الشرابُ فى تحطم الدوارق

يبل ثوبك الفَرَاشىّ .. من الأكمام حتى الخاصرة !

وحين يَفْغر المغنّى فمه مرتبكا

تنفجرين ضحكا !

تشتعلين ضحكا !

وتخلعين الثوبَ فى تصاعدات النغم الصارخ .. والمطارق

وتخلعين خُفَّك المشتبك

ثمّ ...

تواصلين رقصك المجنون .. فوق الشَّظَيَات المتناثرة !!

– ٣ –

عينا القطةِ تنكمشان ..

فيدق الجرسُ الخامسةَ صباحا !

أتحسس ذقنى النابتةَ .. الطافحةَ بثُوراً وجراحا

(.. اسمع خطو الجارة فوق السقف

دفءُ الأغطية ، خريرُ الصنبور
خشخشةُ المذياع ، علوية جسدى المبهور
(.. والخطو المتردد فوق ليس يكف .. !)
تكنى فى دقة بائعة الألبان :
تتوقف فى فكى .. فرشاةُ الأسنان !

— ٤ —

فى الشارع ..
أتلاقى — فى ضوء الصبح — بظلّى الفارغ :
نتصافح .. بالأقدام !

— ٥ —

حبيبتى ، فى الغرفة المجاورة
أسمع وقع خطوها .. فى روحةٍ وجيئة
اسمع قهقهاتها الخافتة البريئة
اسمع تمتماتها الحاذِرة
حتى حفيف ثوبها ؛ وهى تدور فى مكانها .. تهم بالمغادرة
(.. يومان ؛ وهى إن دخلتْ :
تشاغلَت بقطعة التطريز ..
بالنظر العابر من شباكها الى الافريز ..

بالصمت إن سألتْ !)
.. وعندما مرت عليَّ ؛ بقعةً مضيئة ؛
ألقت وراء ظهرها .. تحيةً انصرافها الفاترة
فاحتقنت أذناى ، واختبأتُ فى أعمدة الوظائف الشاغرة
حتى تلاشى خطوها .. فى آخر الدهليز !

- ٦ -

أطرق باب صديقى فى منتصف الليل
(تثب القطةُ من داخل صندوق المضلات)
كلّ الأبواب ؛ العلويَّة والسفليَّة ، تُفتح إلا .. بابه
وأنا أطرق .. أطرق
حتى تصبح قبضتىَ المحمومةُ خفاشاً يتعلق فى بندولْ » !
... ...
يتدفق من قبضتى المجروحةِ خيطُ الدم
يترقرق .. عذباً .. منسابا .. يتساند فى المنحنيات
تغتسل الرئتان المتعبتان من اللون الدالىء ،
ينفثىء السمّ ..
يتلاشى البابُ المغلقُ .. والأعينُ .. والأصوات
... وأموت على الدرجات !!

تدق فوق الآلة الكاتبة القديمة
وعندما ترفع رأسها الجميل فى افتراق الصفحتين
تراه فى مكانه المختار .. فى نهاية الغرفة
يرشف من فنجانه رشفه
يريح عينيه على المنحدر الثلجى ، فى انزلاق الناهدين !
(.. عينيه هاتين اللتين
تغسل آثارهما عن جسمها — قبيل أن تنام — مرتين !)
وعندما ترشقه بنظرة كظيمة
فيسترد لحظةً عينيه : يبتسم فى نعومة
وهى تشدُّ ثوبها القصير فوق الركبتين !
... ...
.. فى آخر الأسبوع
كان يَعُدُّ — ضاحكا — أسنانها فى كتفيه
فقرصت أذنيه ..
وهى تدس نفسها بين ذراعيه .. وتشكو الجوع

— ٨ —

حين تكونين معى أنتِ :
أصبح وحدى ..

فى بيتى !

... ...

— ٩ —

جاءت إلىّ وهى تشكو الغثيان والدوار
(.. انفقتُ راتبى على أقراصِ منعِ الحَمْلْ !)
ترفع نحوى وجهها المبتلّ ..
تسألنى عن حلّ !

... ...

هنأنى الطبيبُ ! حينما أصطحبتُها اليه فى نهاية النهارِ
رجونه أن يُنهى الأمرَ .. فثارَ (.. واستدارْ يتلو قوانين
العقوبات علىّ كى أكفّ القول !)

هامش :

أفهمته أن القوانين تُسَنُّ دائماً . لكى تخرق
أن الضمير الوطنّى فيه يُملى أن يقلَّ النسل
أن الأثاث صار غالياً لأن الجدبَ أهلك الأشجار
لكنه .. كان يخاف الله .. والشرطةَ .. والتجار !

— ١٠ —

فى ليلة الزفاف ؛ فى التوهجِ المرهق

ظلت تُدير فى الوجوه وجهها المتصبر المشرق
وحين صرنا وحدنا ــ فى لحظة الصمت الكثيف الكلمات
داعَبَت الخاتم فى اصبعها الأيسر ، ثم انكمشت خجلى !
(.. كانوا ــ وراء الباب ــ يكنسون النور والظلاً
وتخلع الراقصةُ الشقراءُ عريَها .. وتحسب الهبَات !)
قلت لها « ما أجمل الحفلا »
فاطرقَت باسمةَ الغمازتين والسمات .
وعندما لمستُها : تثلجت أطرافُها الوجلى !
وانفلتت عجلى .. !
كأنها لم تذق الحب .. ولم يثر بصدرها التنهدات !!

ـ ١١ ـ

مذ علَّقنا ــ فوق الحائط ــ أو سمة اللهفة
وهى تطيل الوقفة فى الشرفة !
واليوم ..
قالت إن حبالى الصوتيَّة تقلقها عند النوم !
.. وانفردت بالغرفة !!

ـ ١٢ ـ

فى جلسة الافطار ، فى الهنيهة الطفليَّة المبكِّرة
أعصب عينى بالصحيفة التى يدُسها البائع تحت الباب

وزوجتى تبدأ ثرثرتها اليومية المتابرة
وهى تصبُّ شايها الفاتر فى الأكواب !
(.. تقص عن جارتها التى ارتدت ..
وجارها الذى اشترى ..
وعن شجارها مع الخادم والبوّاب والقصّاب ،
.. ثم تشد من يدىّ : صفحة الكُرَةْ) !

- ١٣ -

.. العالم فى قلبى مات .
لكننى حين يكف المذياع ؛ وتنغلق الحجرات :
أخرجه من قلبى ، وأسجّيه فوق سريرى
أسقيه نبيذ الرغبة
فلعلّ الدفء يعود الى الأطراف الباردة الصلبة
لكن .. تتفتت بشرته فى كفى
لا يتبقى منه سوى .. جمجمةٍ .. وعظامْ !
... ... وأنام !!

(١٩٦٧)

اجازة فوق شاطىء البحر

أغسطسُ ،
الاسكندريةُ :
واليودُ ينشع فى رئتين ..
يسدُّ مَسَامُهما الرَّبوُ .. والأتربةْ !

•••

طفولةُ « مايو » تشيخ ،
وفى الصبح : نرفع راياتنا البيض للبحرِ .. مستسلمينَ ،
لِينْخَرَنا الملحُ ، يمنح بشرتَنا المَشَ البرصيَّ ،
ونفرشُ أبسطةَ الظُّهرِ ، نجلسُ فوق الرمالِ ،
نُمرْوِحُ فى حزننا الغامضِ الشبقِىِّ .. لكي يتوَّهجَ !
(.. حين همنا بإمساكه : احترَقَتْ يدُنا !) ،
نتلمسُ ثدى البكارةِ .. كيف تجفُّ النضارةُ فيه ،
فيفرزُ سُمَّاً .. ودُوداً يعيث بتفاحةٍ معطبةْ !؟
... ...
وفى الليل . نخفضُ راياتنا ..

نقضُ الهدنةَ الأبديّةَ ،
نجرؤ أن نتساءلَ « هل نحنُ موتىٰ » ؟!
وجولاتُنا فى الملاهى ،
اهتزازاتُنا فى الترامِ ،
تلاصقُنا فى ظلام المداخلِ ،
ذبذبةِ النظرات أمام المعارضِ والعابراتِ الرشيقاتِ ،
مركبةُ الخيل حين تسير الهوينى بنا ،
الضحكات ، النكات :-
بقايا من الزَّبَدِ المرِّ .. والرغوة الذاهبةْ ؟!!
« تُرى نحن موتى .. »
وننشبُ أنيابنا فى الطيور المهاجرة المتعَبةْ !!

(٢)

صديقى الذى غاص فى البحر .. ماتْ !
فحنّطتُهُ ..
(.. واحتفظتُ بأسنانهِ ..
كلُّ يومٍ إذا طلع الصبحُ : آخذُ واحدةً ..
أقذف الشمسَ ذات المحيَّا الجميل بها ..
وارددُّ : « يا شمسُ ؛ أعطيكِ سنّتهُ اللؤلؤيّة ..
ليس بها من غبارٍ .. سوى نكهةِ الجوعِ !!

رُدِّيه ، رُدِّيه .. بَرِّرِ لنا الحكمة الصائبهْ !
ولكنها ابتسمت بسمةً شاحبةْ !)

... ...

وكانت على البحر رايةُ حزنٍ ، وغضبةُ ريح
ونحن ـ مع الصمت ـ نحمل جثمانه فوق أكتافنا ،
ثم نهبط فى طرقات المدينةِ ،
نستوقف العابرين ،
نسائلهم عن طريق المدافنِ .. والرحلةِ الخائبةْ !
ولكننا فى النهاية ..
عدنا الى شاطىء البحرِ .. والرايةِ الغاضبة !!

• • •

بدايتُنا البحرُ ..
ـ حين قصدنا المقابرَ ! ـ
كيف رجعنا إليهِ ؟!
وكيف الطريقُ اشتَبَهْ ؟!

(١٩٦٦)

صوت (١) :
أغلقى المذياعَ !
هذا زمن السكتةِ ،
« سالومى » تغنّى ..
من تُرى يحمل رأس « المعمدانْ » ؟!

●●●

فى انكساراتِ الظلالْ ..
تبدأ الأحزانُ فى أعماقنا إيقاعَها الهادىءَ ،
تصحو الرغبةُ المرتعشةْ .
تتوالى قطراتُ الصمت من صنبورها الفضىِّ ،
كى ترسم فى صفحة ماضينا .. الدوائرْ
صورةً لأمرأةٍ تجلس فى البهوِ — تحوكُ الصوفَ —
فى مئزرها البيتىِّ ، لفّاءَ الضفائرْ
نقراتُ المطر العذبةُ فى النافذة البيضاء ،
دفقُ الدفءِ من تمتمةِ القطةِ ،
موسيقى السكونِ الموحشةْ

مركباتُ الغدِ تدنو في الخيالْ ..
تصهل الأفراسُ عند البابِ :
ـــ « أين القادمونْ ؟ »
ـــ الليلُ .. الوحدةُ .. والشوقُ المحالْ !

(تقاسيم) :
عقب استعراضها الفاشل .. لم تخلع رداء الرقصِ ،
ظلت خلف أستار « الكواليسِ » ،
تُردُّ السحبَ الزرقاءَ عن أعينها ، تبكي شباباً ..
كانت المتعةُ فيه : قطعةَ الجبن .. وكأسين من « الرومِ
لكي تمرح في غرفةِ ريفيٍ من الطلابِ ..
لا تملكُ يمناهُ سوى الكسرةِ والتبغ الرخيص ،
ـــ الآن يمشي خلفه .. سربٌ من الأطفالِ ،
عند النومِ يسطون على منظاره الطبيِّ .. حتى لا يرى
وجهها صافٍ .. وعيناها غديران من الحزنِ ،
ويدنو الخادمُ الأسمرُ ، يلقي باقةَ الوردِ ،
ويلقي دعوةً للسهرِ ..
(. الآن ستمضي ،
وغدا سوف يوافيها الطبيبُ ـــ الموتُ والاجهاضُ ـــ

هذا شهرُها الثالثُ . رغم الحلم الشائع !
حتى أنت يا أقراصَ مَنْع الحمل ؟!
ما من أحدٍ في هذه الدنيا جديرٌ بالأمانْ !)

منفرد
مَنْ يفترسُ الحَمَلَ الجائعْ
غيرُ الذئبِ الشبعانْ ؟
ارتاح الربُّ الخالقُ في اليوم السابعْ
لكن .. لم يسترح الانسان

صوت (٢) :
وحدها.. تتساقطُ الدمعةُ من عين الليالْ
بعد أن علَّقها الوهمُ طويلا ..
وحدها ! سرعان ما ترشفها الأرض !
وينساها الرجالْ
شربوا قهوتَها المُرَّةَ ، والمذياعُ مازال يغنّى !
والمصابيحُ تُضاءُ !

الموت فى لوحات

(١)

مصفوفةٌ حقائبى على رفوف الذاكرة .
والسَّفَرُ الطويلُ ..
يبدأ دون أن تسير القاطرة !
رسائلى للشمسْ ..
تعود دون أن تمسّ !
رسائلى للأرض ..
تُردّ دون أن تُفَضّ !
يميل ظلى فى الغروب دون أن أميل !
وها أنا فى مقعدى القانطْ .
ورقةٌ .. ورقةٌ .. يسقط عمرى من نتيجة الحائط
والوَرَقُ الساقط
يطفو على بحيرة الذكرى ، فتلتوى دوائرا
وتختفى .. دائرةٌ .. فدائرة !

(٢)

شقيقتى « رجاء » ماتت وهى دون الثالثة .

ماتت وما يزال فى دولاب امىَ السرىَ .
صندلُها الفضىّ !
صدارُها المشغول ، قرطُها ، غطاء رأسها الصوفىّ
أرنبها القطنىّ !
وعندما أدخل بهو بيتنا الصامت
فلا أراها تمسك الحائط .. علّها تقف !
أنسى بأنها ماتت ..
أقول . ربما نامت ..
أدور فى الغرف .
وعندما تسألنى أمى بصوتها الخافت
أرى الأسى فى وجهها الممتقع الباهت
وأستبين الكارثة !

(٣)

عرفتها فى عامها الخامس والعشرين .
والزمنُ العنّين ..
ينشب فى أحشائها أظفارَه الملونّة .
صلّت إلى العذراء ، طوفت بكل صيدلية
تقلبت بين الرجال الخشنين !
.. وما تزال تشترى اللفائف القطنية !

.. ما تزال تشترى اللفائف القطنية !

... ...

وحين ضاجَعَتْ أباها ليلةَ الرعدِ
تفجَّرَتْ بالخصبِ والوعدِ
واختلجت فى طينها بشارةُ التكوين !
لكنها نادت أباها فى الصباح ..
فظل صامتا !
هزَّته .. كان ميتا !!

(٤)

من شرفتى كنت أراها فى صباح العطلة الهادىء
تنشر فى شرفتها على خيوط النور والغناء
ثيابَ طفليها ، ثياب زوجها الرسميّة الصفراء
قمصانه المغسولة البيضاء .
تنشر حولها نقاءَ قلبها الهانىء
وهى تروح وتجىء .

... ...

والآن بعد أشهر الصيف الردىء
رأيتها .. ذابلة العينين والأعضاء
تنشر فى شرفتها على حبال الصمت والبكاء

(٥)

حبيبتى فى لحظة الظلام ؛ لحظة التوهج العذبة
تصبح بين ساعدىّ جثةً رطبة !
ينكسر الشوق بداخلى ، وتخفت الرغبة
أموء فوق خدها
أضرع فوق نهدها
أود لو أنفذ فى مسامّ جلدها
لكن .. يظل بيننا الزجاجُ .. والغيابُ .. والغربة !

... ...

وذات ليلة ، تكسَّرت ما بيننا حواجزُ الرهبة
فاحتضنتنى .. بينما نحن نغوص فى قرارة التُّربة
تبعثرت فى رأسها شرائح الصورة والنجوم
واختلطت فى قلبها الأزمنة الهشيم
لكنها وهى تناجينى
سمعتها تنادينى
باسم حبيبها الذى قد حطم اللُّعبة
مخلّفاً فى قلبها .. ندبة !!

بطاقة كانت هنا

(١)

المنزل الثالث بعد المنحنى
الطابق الأخير .
بطاقة صغيرة كانت هنا
وخيطُ ضوء كان من خلال بابها ينير !
الطابق الأخير ..
الوحشة السوداء فى الأعصاب تنغرس
يدى على الجرس :
سدى .. سدى !!
تراجعت فى أذنىَّ رحلةُ الصدى
وأساقط الرماد من لفافتى !
كانت هنا حبيبتى
عيونها محابرُ الضياع
عامٌ .. وعامان .. مدادُها الحزين لم يجفّ
صلاةُ هرة إلى الشتاء خلف باب

وبسمةٌ كأن نورساً على المدى يرفّ !
ها أنذا ..
يدٌ تساندت على الجدار .
وخطوة تهبط للقرار !

(٢)

حانوتُ خمّار كئيب
يرسم فى كئوسه عرائس الأحلام ، فى الزجاج
توهجت عند امتلائها ..
وبعد برهةٍ .. عاودها الشحوب !
حبيبتى ملامح ابتسامةٍ على بريقها الوهّاج
« بنلوب » أين أنتِ يا حبيبتى الحزينة ؟
صيفان ملحدان فى مخاطر الأمواج
كقبضةٍ من العفونة ..
أعودُ ، كى يغتسل الحنين فى بحيرة اللهيب .
لكنما « بنلوب » ..
بطانةٌ كانت هنا !
ووحشةٌ غريبةٌ ، وثقبُ بابٍ لم يعد يضىء !
وعنكبوتٌ قد أتمَّ — فوق ركنه — نسيجهُ الصوفىّ !

لقد أتمَّ العنكبوتُ ما بدأت فى انتظارك الوفىّ !
ما كان كان ..
لكنها ملامح الزجاج
لا تعرف النسيان !

(٣)

الليل عند المنتصف
يا سائق السيارة العجوز .. قف
المنزل الثالث بعد المنحنى ..
لكنها يا صاحبى العجوز .. لم تعد هنا !
امض هناك حيث لا مكان
حيث البيوت دونما عنوان
أوغل بنا فى رحلة السراب
قافلة الغناء تستعد للمسير خلف دورة الهضاب
لا تسأل الحادين عن وجهتها ، عن المآب
فهم هناك يرقبون أصبع النجوم
ضاعت معالمُ الطريق فى الضباب .
حبيبتى لابدّ أنها هناك
تسأل عن رواحلَ ارتدَّت من الغروب
لا ترتبك ، فقد يضيع العمر فى هنيهة ارتباك .

حبيبتى : لقد نجوتُ من « سدوم »
طفلك آتٍ من مدينة الخراب
الموت ما يزال مفعياً على الأبواب
الخاطئون .
هم الذين يرحلون
فى هذه القافلة المسدودة الدروب
... ...
سدى .. سدى ..
تراجعت فى أذنىّ رحلةُ الصدى
وأساقط الرمادُ من لفافتى .

جسدى : صخرة صهرتها الظهيرة .
حلقها يتفتّتُ ،
والبحرُ بعد ذراعين .. بُعد السماء !
فرسُ الموج تنفض أعرافها البيضَ ،
تعلو بمركبة الزرقة اللهبيَّةِ ،
لكنها تتحطم فوق الحواجز .. تهوى كسيرة !
أكشف الرأسَ تحت الرذاذِ ،
أمدُّ يدى حاملاً كوبىَ الفارغَ الورقىَّ ..
لتسبح فيه الفقاقيع ذات العيون الصغيرة
عطشٌ .. عطشٌ ، والنداء .
خنجر فى الهواء !
حين صار فمى فضةً : وقف الببَّغاء ..
عاريا .. نزعت ريشَه يدُها المحنقة .
قالت الزنبقة :
« أرخ عينيك .. وافتحهما .. »
لم .. لم ألقها فى شجيرتها المُطرِقة !

شَعرُها طائرٌ جرفته الرياح
شعرها والوشاح
وهى تعدو .. وما بيننا الصمتُ والقشعريرة !
كل من شربوا .. هربوا دون أن يدفعوا ثمناً للعزاء
رَحَلوا .. بعد أن قلبوا فى التراب الاناء .
ووقفتُ على الحانِ : لم أر غير الحطام ..
وذبال المصابيح .. والقط يعبث بالفضلات الأخيرة .
ــ سيدى : مُلكك الحزنُ والكبرياء
خيطك ؟ انقطع الخيطُ منك ،
وعصفوره فرَّ دامى الجناح !
أمراء المدينة مرُّوا إلى الصيد عند الصباح
الفريسة تجرى .. ولكن كلبك يُرخى الذنَبْ
وهو يكتم فى رئتيه النباح !

•••

فى سكون المساء
كنتُ أنقر عينَ الشهيد المجسَّم فوق النُّصُبْ
حين مرَّ السكارى .. يدورون فى حلقات الصخب
يبدأون الغناء:
« ياعيون النساء »
« أمطرى .. أمطرى »

« من تُرى تشترى خنجرى »

« لتخبئه فى حقيبتها .. »

« ثم تبقر بطن غريمتها المومياء ؟ »

(. أيها الأشقياء !)

.. مرَّ بى التائه المغترب

فتمدد فوق الحشائش .. ملتصقاً بالرخام

وتوسد دمعته ، ثم نام .

(ظمىء الناس للدم فى كل قلبٍ محب ..

فاسقهم يا غلام !)

مرَّ بى غاسلو الطرقات

فأداروا خراطيمهم ، غسلوا النُصب الحجرىَّ ،

.. وكنتُ على الدرجات

أتأوّه مرتعشاً ، وثيابىَ تلصق فى جسدى المضطرب

والرياح تهب ، وتصفعنى بالعواء .

... ...

أهلىَ الغرباء .

عبروا بى مع الصبح ، أهذى بغيبوبة الموت ،

محتقن الوجه ، خاوى الوفاض

يتفتت حلقى لقطرة حُبّ ..

غير أن الينابيع جفّت بعينىَّ ، والبحر غاض ..

والشطوط العراض
تتناءى ..
ويهوى البياض !

تأكلنى دوائرُ الغُبار .
أدور فى طاحونة الصمتِ ، أذوب فى مكانيَ المختار
شيئاً فشيئاً .. يختفى وجهى وراءَ الأقنعة
أعمدةُ البَرْقِ التى تطل من نوافذ القطار
كأنها سربُ إوزٍ أسود الأعناق
يطلق فى سكينتي صرخته المروّعة
ويختفى .. متابعاً رحلته مع التيار !
(صوتُك كانَ ؟
أم نعاسُ الشهوة الماكر ما بين انفراج الشفتين ؟
هذا الذى يشبك قلبى خاتما .. تحت نعومة القفاز
حتى إذا اغتَسَلْتِ — فى نهاية السهرة — من لزوجة الألفاظ
تخبئينه على نافذة الحمّام .. يستعيد ذكرياته ..
ويسترد الزمنَ الضائع بين الصورتين ؟!)

•••

توقفى أيتها الأشرطة البيضاء
فقد نرى الخيط الذى خلّفه الثعبانُ فوق الصحراء

قد نرى عظام من ماتوا من الظما
قد نرى .. وقد نرى ..
كنها الأشياء ..
دب فيها نبضُها الوحشىّ ، نبضُها المكبوتْ
نرو على وجهى دقيق دفئها ..
مزَقاً من ورقات التُوتْ .
شرع فى العيون صولجانها المكسوّ بالصدأ
فى المقاهى ترفع الصوت ، وتحكى عن فضائح البيوت !
ـ فى آخر العمرِ ، تصير الأذنُ عادةً ..
لّة مهملات .. !

***

(جوارب السيدة المرتخية
ظلت تثير السخرية
وهى تسير فى الطريق .
وحين شدتها : تمزقت ..
فانفجر الضحك ، ووارت وجهها مستخذية .
وهكذا أسقطها الصائد فى شباك سيارته المفتوحة
فارتبكت وهى تسوّى شعرها الطليق
وأشرقت بالبسمات الباكية !)

***

لقد فقدتُ مقعدى .. قبيل أن يرتفع الستار
وانكسرت فى داخلى الرغبة فى استرداده ، الرغبةُ فى الشجار
فكل شيء يرتخى فى لحظة التأهب المرتقبة
وتعبث الأيدي بأزرار قميصها المذّهبة
وتنطفى فقّاعةُ السخط .. ببسمة اعتذار !
شيئاً فشيئاً .. غاب عن قلبىَ خيطُ الضوء !
واللحظة الملتهبة !
والنشوةُ الأولى التى تشدُّ الظهر ..
حين يدق سمعَنا إيقاعُ خطو إمراةٍ مقتربة !
وضحكة العذراء عندما يرشها رذاذُ البحر !
والألم الذى يهصُرنا لطفلةٍ عرجاء !
والدفء فى استغراق كهل جالس ، يحل فى هدوء ..
مسابقات الكلمات .. !!

***

رءوسنا تسقط .. لا يسندها ..
إلاّ حوافّ الياقة المنتصبة !
فارحم عذابى أيها الألم ..
واسند حطامىَ المنهار .

(١٩٦٧)

بكائية الليل والظهيرة

- ١ -

فى كل ليل ..
تخلع الذكرى ملابسها المغبَّرة القديمة ،
تستحم برشرشات الضوء ؛ تغسل فيه ، وعثاء الطريق
وتسترد نضارةَ الألوان .. والمرحَ القديمْ .
ندمانةٌ .. كالظلّ ، تخلع خُفها المبلولَ ،
تستلقى جوارى فى الظلام ؛ تضىء بشرتُها :
برائحة التوغل فى الحقول ..
برعشة القمر المؤرجح فى مرايا النيل ..
بالقطرات تلمع فى منابت شعرها المحلول ..
بالنبض الخجول .. يرف فى استدفائها ..
باللثغةِ الغنَّاء فى الصوت الرخيمْ
.. وذراعها يلتفُّ : يرتعش التوهج تحت لمستهِ .
وتقلع آخرُ السفن المقدسة المضيئة من مرافئها ؛
تشق النهر ؛ تنثر ما تبقى من رمادى :
فوق أذرعة الخريف البائسات .. فتكتسى ،

فوق الشفاه اليابسات .. فترتوى ،
فوق المروج .. فتنطوى فى الليل موسيقى الجنادبِ ،
فى الحظائر .. يهدأ المُهرُ الحرونْ ،
على مناقير الطيور .. فتطعم الأفراخ من توت الغناء الحلو
فى عقم السماء .. فتنبض البشرى ، وتنعقد الغيوم .

•••

يا دقة الساعاتْ
هل فاتنا .. مافات ؟
ونحن مازلنا ..
أشباحَ أمنيَّات
فى مجلس الأموات !؟

•••

– ٢ –

فاضَ النهارُ بنا ، فمزق عن تصوفُّنا معاطفَنا ،
وأُلقانا على أعتاب مملكة النميمة ، والذباب يطنُّ ،
والكلماتُ : أقداحٌ مكسَّرةُ الحواف ..
إذا لثمناها .. تجرَّحت الرؤى !
والصمت : قضبان محمَّاةٌ على وهج البكاء .
(فاض الاناء ، وعاملُ البرْق الصغيرُ يدقُّ باب ... ت ؛

« ــ آه » وتسقطُ الشمسُ الصغيرة عن رداء النومِ
تبكى المرأةُ الأفعى على كتف العشيقِ ،
وتستزيد من البكائيات ، تلقم صدرَها العارى يديهِ ..
ــ لعله يبنىَ بها بعد الحداد ! ــ
تدير عينيها اللتين تندُّتا .. فأذابتا بقع الطلاء ؟)

٥٥٥

كان الطريق يدير لحنَ الموتِ ــ كان جهنمىَّ الصوت ــ :
فوق شرائط التسجيلِ ..
فى أسلاك هاتفهِ المخنَّثِ ..
فى صرير الباب من صدأ الغوايةِ ..
فى أزيز مراوح الصيف الكبيرةِ ..
فى هدير محرِّكات « الحافلات » ..
وفى شجار النسوة السوقىِّ فى الشرفاتِ ..
فى سأم المصاعدِ ..
فى صدى أجراس إطفائيةٍ تعدو .. مصلصلة النداء .
(.. كونى إذن ما شئتِ :
ساقطةً تدور على مواخير الموانىءِ ،
وجه راهبة تضاجع صورة العذراء ،
أمّاً تأكل الأطفالَ ،

كونى أى شىءٍ — فيه نغمس خبزنا الحجرىّ — ملتهب الدماء !)

•••

تدمُ الغبار يلح فوق وجوهنا ،
ونلوذ بالجدران نحفر فوقها أسماءنا .. لكنها تتفتت !
الجدران وهمٌ ..
والرجالُ الملصقون على مساحة صفحة الأعلانِ ،
والصورُ الثمينة فى المعارض ، والنقوش على المعابدِ ،
والوسامُ العسكرىُّ لأنبل الشهداء ،
والزهو الذى يندسُّ فى رحم النساء .
(.. تلك المرارة :
صمت جلسات شاى العصر ..
صمت انتعاشتنا بلسع الماء فى حمّامنا الصيفى —
صمت البراءة فى تساؤل طفلنا من أين جاء !)

•••

يا آخر الدقات
قولى لنا .. من مات .
كى نحتسى دَمَهُ
ونختم السهرات

بلحمه نقتات !

***

– ٣ –

ماذا تخبىء في حقيبتك العتيقة .. أيها الوجهُ الصفيق
أشهادة الميلاد ؟
أم صكّ الوفاة ؟
أم التميمة تطرد الأشباح فى البيت العتيق ؟
ماذا تخبىء أيها الوجه الصفيق ؟!
ماذا تخبىء أيها الوجه الصفيق ؟!

(١٩٦٦)

أشياء تحدث فى الليل

« إلى صلاح حسين .. »

رخاوةُ النعاس تغمر المسافرين فى قطار الليلْ .
.. وفى حقول قريةٍ بعيدةْ
شق السكون ـــ فجأةً ـــ عُواءُ ذئبْ
وانعقد الحليبُ فى الضروعْ
وانطلق رصاصةٌ :
فكفّت الأشياءُ ـــ بعدها ـــ عن الوجيب ..
هنيهةً ، ثم استعادتْ نبضَها الرتيب ..
وكانت الليلةُ .. لا تزال مقمرة !
(كان النشيدُ الوطنىُّ يملأُ المذياع منهياً برامج المساءْ
وكانت الأضواءُ تنطفى ..
والطرقات تلبس الجواربَ السوداء
وتغمر الظلالُ روحَ القاهرة .)
والدمُ كان ساخناً يلوِّث القضبانْ
هذا دمُ الشمس التى ستشرق ، الشمس التى ستغرب ،
الشمس التى تأكلها الديدان !

دمُ القتيل أحمر اللونِ ،
دم القتيل أخضر الشعاعْ
خيطٌ عليه تُنثر الدموع .. كى تجفّ فى أشعةِ الصبح
(وكان مبنى الاتحاد صامتاً .. منطفىءَ الأضواءْ
تسرى إليه من عبير « هيلتونَ القريبْ ..
أغنيةٌ طروب !)
وكان وجهه النبيلُ مصحفاً عليه يُقسم الجياع
وكانت الذراعْ ..
فارعةً ، كأن محراثاً يشق الأرضَ !
كانت الذراعْ ..
ضامرةً .. كبذرة القمح
ضامرةً كالسنّةِ الأولى التى تنبتُ فى فم الرضيع !
(وكانت المطابعُ السوداءُ تلقى الصحف .. البيضاء
وصاحبان فى ترام العودةِ الكسولْ
يختصمان فى نتائج الكرةْ .
وفى طريق الهَرَم الطويلْ .
تبادلت سيارتان ــ كادتا فى الليل أن تصطدما ــ
السّباب !)

•••

وفى الصباح ، والنشيدُ الوطنىُّ يملأُ الأسماعْ
كان فَرَاشُ الحقل يبدأ النشيجْ
وكانت الأصواتُ فى القُرى .. جنائزيةَ الايقاع
ورحلةُ الموال فى الضلوع تفرد القلوع :
« أدهم مقتول على كل المروج »
« أدهم مقتول على الأرض المشاع »
... ...
وكان وجهه النبيل مصحفا ..
عليه يقسم الجياع !

بكائية :

أعطنى القدرة حتى ابتسم ..
عندما ينغرس الخنجرُ فى صدر المَرَحْ
ويدب الموت ، كالقنفذ ، فى ظل الجدار
حاملاً مبخرة الرعب لأحداق الصغار .
أعطنى القدرة .. حتى لا أموت .
منهكٌ قلبى من الطرق على كل البيوت
علّنى فى أعين الموتى أرى ظلّ ندم !

فأرى الصمت .. كعصفورٍ صغير
ينقر العينينِ والقلبَ ، ويهوى ..
فى ثنايا كلِّ فم !

— ١ —

« الرياحُ » اختبأت فى القبو ، حتى تستريحْ ..
.. فيه من أرجحة الأجساد فوق المشنقة .

ووقفنا نحرس الباب ، ونحمى الأروقة
بينما خيلُ المماليكِ تدق الأرض بالخطو الجَموح
يقتفون الأثرا
يسألون الدربَ عن خطوة ريح فيه ؟ عن أية ريح ! .
فنغض البصرا !
ومضوا ، والسنبكُ المجنون يهوى ، فيصب الشررا
وتواروا فى الحوارى الضيقة .
.. نحن عدنا نحمل البشرى لها
وهتفنا باسمها
وهززنا كتفيها ، عبثا ..
وتدلت رأسها فى راحتينا .. ميتة !
نحن كنا نحرس الباب ، ونحمى .. اللافتة
وهى ــ تعويذتُنا ــ لم نحمها !

– ٢ –

الخيولُ المسرجة . !
صهلت ، لكن هل الفرسان فرسانٌ كما كانوا .. غدا ؟
والمهاميزُ التى تحملها الأقدام .. غاصت فى القلوب ! .
وسيوفٌ ثلمت ..
فقد استأجرها النخّاسُ .. تحمى هودجه !

وسيوفٌ قنعت أن تتدلى عند الاستعراض .. زينة !
وحمائل ..
حملتها في دياجى الليل أضلاعُ المقاصل
ودفنّا نبلَها المقهورِ فى عام البكاء .
.. شبحُ الفرسان ما زال على وجه المدينة
صامتاً يأتى إذا جاء المساء
صامتاً ينفض أطراف الرداء
ويمد الجسدا ..
فيمد الخوفُ فى الليل يدا !
ثم يمضى ، يحملِ الأكفان ، يسرى فى الدروب
يحمل الأكفانَ أثوابَ ركوب !
والمهاميز التى تحملها الأقوام .. غاصت فى القلوب !

– ٣ –

التحيات « مساء الموت » ياقلبى
فلا تلق التحية

– من ترى ماتَ ؟
– أنا ..
– أنت !
– أجل .

ـ أنتَ لا تملك يوماً أن تموتْ .
ـ الحماماتُ لَوتْ أعناقها ..
والتوى حتى لسانى بالرُّطانْ
ـ أنت لا تعرف من أنتَ ..
ـ أنا :
منذ أن مات أبى ..
كل من تعشقه أمى الغريّة ..
كل من تعشقه أمى : أبٌ لى فى العماد !
ـ ربما « أحمس » ربّتْهُ امرأةْ .
ـ .. ذَهَبُ الشمس العجوز انصهرا
وهوى فوق نفايات الثرى
وأنا أبكى على تلِّ الرماد !
يفتح المخلبُ أجفانَ العيون
لترى .. لكن تُرى ماذا ترّى ؟
(ساعة الحائط فى معبد « هاتور » .. انتهت دقائقُها
وانتهت « طروادةٌ » البكرُ .. على وهم الحصان !)
ـ .. أنا « أوزوريس » صافحتُ القمر
كنتُ ضيفاً ومضيفاً فى الوليمه
حين أجلستُ لرأس المائدة
وأحاط الحرسُ الأسودُ بى

فتطلعت إلى وجه أخى ..
فتفاضت عينُه .. مرتعدة !
أنا أوزوريس ، واسيتُ القمر
وتصفحتُ الوجوه ..
وتنبأتُ بما كان . وما سوف يكون ؟
فكسرتُ الخبزَ ، حين امتلأت كأسى من الخمر القديمة
قلت : يا اخوةُ ، هذا جسدى .. فالتهموه
ودمى هذا حلالٌ .. فاجرعوه » !
خبأ المصباحُ عينيه .. بأهداب جناحيه ..
لكى تخفى الجريمة
وتنَّى الضوءُ من حدِّ الخناجر !
ـــ ربما أحياكَ يوماً دمعُ « ايزيس » المقدّس
غير أنا لم نعد ننجب ايزيس جديدة
لم نعد نصغى الى صوت النشيج
ثَقُلَتْ آذاننا منذ غرقنا فى الضجيج
لم نعد نسمع إلا .. الطلقات !
(يفرض الرعبُ الطمأنينةَ فى ظل المسدّسْ ..)
ـــ الطمأنينةُ فى ظل الحداد ؟!
ـــ سيدى .. نحن انزلقنا من ظهور الأمهات
بيد تضغط ثقب الجرح ،
..

- ٤ -

عندما يبتلع (الكورنيشُ) أضواءَ الغروب
تسعل الظلمةُ فيه والبرودة
يحمل الجوعُ إلى العار .. وليدَه
كلمات ..
ثم تنسلُّ من البَرْدِ .. لدفءِ العربات .
والمصابيحُ : شظايا قمرٍ .. كان يضيء
حطمته قبضةُ الطاووس فوق الطرقات
ثم أهدته إلى النسوة .. كي يصلبنه فوق الصدور .
يتباهين به .. وهو رفات !
كلمات .. كلمات ..
ثم تنسل من البرد لدفء العربات .
وأنا « يوسفُ » محبوبُ « زليخا »
عندما جئتُ إلى قصر العزيز
لم أكنْ أملك إلا .. قمرا
(قمراً كان لقلبي مدفأة)
ولكم جاهدتُ كي أخفيَه عن أعين الحرّاس ،

عن كلِّ العيون الصدئة
.. كان فى الليل يضىء !
حملونى معه للسجن حتى أطفئه
تركونى جائعاً بضع ليال ..
تركونى جائعاً ..
فتراءى القمرُ الشاحب — فى كفىَّ — كعكةً !
وإلى الآن .. بحلقي ما تزال ..
قطعةٌ من حزنه الأشيبِ .. تُدمينى كشوكةً !

• • •

أعطنى القدرةَ حتى أبتسم ..
فشعاع الشمس يهوى كخيوط العنكبوت
والقناديل تموت
قدمى تلتمس السُّلَّمة الأولى لكى أصعد فوقا
ويدى تلتمس الحاجزَ إذ أخشى السقوط
كيف أبقى ؟
عفن الموتى ؛ وأطياب الحنوط
نكهة تكسو فِناءَ البيت ، تسرى فى دمى عرقاً فعرقاً .
.. منهكٌ قلبى من الظلمةِ ، إنى لا أرى
آه لو لم ألتهمه — القمر الشاحب — لو ..

ربما نوّر فى الظلمة برهة .
غير أنى كنتُ جائع
وأنا الآن فقدتُ القمرا .
... ...
جائع يا قلبى المعروض فى سوق الرياء
جائع .. حتى العياء
ما الذى آكله الآن إذن ..
كى لا أموت ؟

(ديسمبر ١٩٦٣)

حديث خاص مع ابى موسى الأشعرى

[حاذيت خطو الله ، لا أمامه ، لا خلفه ...]

– ١ –

.. إطارُ سيارته ملوثٌ بالدمّ !
سارَ .. ولم يهتمّ !!
كنتُ أنا المشاهدَ الوحيدْ
لكنني .. فرشتُ فوق الجسد الملقى جريدتى اليوميّةْ
وحين أقبَلَ الرجالُ من بعيد ..
مزقت هذا الرقم المكتوب فى وريقةٍ مطويّةْ
وسرتُ عنهم .. ما فتحتُ الفمّ !!

٠٠٠

(حاربتُ فى حربهما
وعندما رأيتُ كلاً منهما .. مُتَّهما
خلعتُ كلاً منهما !
كى يسترد المؤمنون الرأىَ والبيعة
.. لكنهم لم يدركوا الخدعة !)

٠٠٠

حين دلفتُ داخل المقهى
جرَّدنى النادلُ من ثيالى
جردتُه بنظرةِ ارتيابِ
بادلتُه الكُرْها !
لكننى منحتُه القرشَ : فزيَّن الوجها ..
ببسمةٍ .. كلبيَّةٍ .. بَلْها ..
ثم رسمتُ وجهه الجديدَ .. فوق علبةِ الثقابِ !

- ٢ -

رأيتُهم ينحدرون فى طريق النهرْ ..
لكى يشاهدوا عروسَ النيلِ ــ عند الموت ــ فى جَلْوتها الأخيرةْ
وانخرطوا فى الصلوات والبكاءْ .
وجئتُ .. بعد أن تلاشت الفقاقيعُ ، وعادت الزوارقُ الصغيرة
رأيتُهم فى حلقاتِ البيع والشراءْ
يقايضون الحزنَ بالشواءْ !
.. تقول لى الأسماكْ
تقول لى عيونُها الميِّتة القريرة :
ان طعامها الأخيرَ .. كان لحماً بشرياً ..

قبل أن تجرفها الشبّاكُ !
يقول لى الماءُ الحبيسُ فى زجاج الدورقِ اللمّاعْ
ان كلينا .. يتبادلان الابتلاعْ !
تقول لى تحنيطةُ التمساح فوق باب المنزل المقابلْ
إنَ عظامَ طفلةٍ .. كانت فراشَ نومه فى القاعِ !!

•••

(خلعتُ خاتمى .. وسيدى .
فهل تُرى أحصِي لكِ الشاماتِ فى يدى
لتعرفينى حين تُقبلين فى غدٍ
وتغسلين جسدى
من رَغَواتِ الزَّبَدِ ؟!)

•••

فى ليلةِ الوفاءْ ..
رأيتُها — فيما يرى النائمُ — مُهرةً كسلى
يسرجُها الحوذىُّ فى مركبةِ الكراءْ
يهوى عليها بالسياطِ ، وهى لا تشكو .. ولا تسيرْ !
وعندما ثرتُ .. وأغلظتُ له القولا ..
دارت برأسها ..
دارت بعينيها الجميلتينْ ..

رأيتُ فى العينين : زهرتينْ
تنتظران قبلةً . من نحلةٍ هيضَ جناحُها .. فلم تَعُد تطيرْ !
.. رأيتُها ــ فيما يرى النائم ــ طفلةً .. حبلى !
رأيتُها .. ظلا !
وفى الصباح : حينما شاهدتُها مشدودةً إلى الشراعْ
ابتَسَمَتْ ، ولَوَّحَتْ لى بالذراعْ
لكننى : عَثُرتُ فى سيرى !
رأيتُنى .. غيرى !
وعندما نهضتُ : ألقيتُ عليها نظرةَ الوداعْ
كأننى لم أرها قبلا !
فأطرَقَتْ خجلى ..
ولم تَقُلْ إنى رأيتُها .. ليلا !

ـ ٣ ـ

خرجتُ فى الصباح .. لم أحمل سوى سجائرى
دسستُها فى جيبِ سترتى الرماديّة
فهى الوحيدةُ التى تمنحنى الحبَّ .. بلا مقابل !

ooo

رؤيا :

(ويكون عامْ .. فيه تحترق السنابل والضروع
تنمو حوافرُنا ـ مع اللعناتِ ـ من ظمأٍ وجوعْ
يتزاحفُ الأطفالُ فى لعق الثرى !
ينمو صَديدُ الصمغ فى الأفواهِ ،
فى هدبِ العيون .. فلا ترى !
تتساقط الأقراطُ من آذان عذراوات مصرْ !
ويموت ثدىُ الأمِّ .. تنهضُ فى الكرى
تطهو ـ على نيرانها ـ الطفل الرضيع !!)

ooo

حاذيت خطو الله ؛ لا أمامهُ .. ولا خَلْفَهْ
عرفتُ أن كلمتى أتْفَهْ ..
من أن تنال سيفه أو ذَهَبَهْ .
(حين رأتْ عيناى ما تحت الثيابِ : لم يَعُدْ يثيرنى !)
قلبتُ ـ حيناً ـ وَجْهَىْ العُمْلةْ
حتى إذا ما انْقَضَت المهلةْ
ألقيتها فى البئر .. دون جلبَة !
وهكذا .. فقدتُ حتى حِلْمَه وغَضَبَهْ .
(عيناكِ : لحظتا شُروقْ
أرشف قهوتى الصباحيَّة ... [illegible] المحروقْ

وأقرأ الطالعْ !
وفى سكون المغربِ الوادعْ
عيناك ، يا حبيبتى ، شُجيرتا برقوق
تجلس فى ظلِّهما الشمسُ ، وترفو ثوبها المفتوق
عن فخذها الناصع !)

– ٤ –

.. وستهبطين على الجموعْ
وترفرفين .. فلا تراك عيونُهم .. خلف الدموعْ
تتوقفين على السيوف الواقفةْ
تتسمَّعين الهمهماتِ الواجفةْ
وسترحلين بلا رجوعْ !
... ...
ويكون جوعْ !
ويكون جوعْ !

(مارس ١٩٦٧)

من مذكرات المتنبي

(في مصر)

٥ ٥ أكرهُ لون الخمر في القنّينة
لكنني أدمنتها .. استشفاءا .
لانني منذ أتيتُ هذه المدينة
وصرتُ في القصور ببغاءا :
عرفتُ فيها الداءا !

٥ ٥ أمثل ساعة الضحى بين يديْ كافور
ليطمئن قلبه ؛ فما يزال طيره المأسور
لا يترك السجن ولا يطير !
أبصر تلك الشفة المثقوبة
ووجهه المسودَّ ، والرجولة المسلوبة
.. أبكي على العروبة !
٥ ٥ يوميء ؛ يستنشدني : أنشده عن سيفه الشجاع
وسيفه في غمده .. يأكله الصدأ !
وعندما يسقط جفناه الثقيلان ؛ وينكفيء .
أسير مثقل الخطى في ردهات القصر

أبصر أهل مصر ..
ينتظرونه .. ليرفعوا إليه المظلمات والرقاع !
.. جاريتى من حلب ، تسألنى « متى نعود ؟ »
قلت : الجنود يملأون نقط الحدود
ما بيننا وبين سيف الدولة .
قالت : سئمت من مصر ، ومن رخاوة الركود
فقلت : قد سئمتُ ــ مثلك ــ القيام والقعود
بين يدى أميرها الأبلة .
لعنت كافورا
ونمتُ مقهورا ..
ه ه « خَوْلَةُ » تلك البدويّة الشّموس
لقيتها بالقرب من « أريحا »
سويعةً ، ثم افترقنا دون أن نبوحا
لكنها كل مساءٍ فى خواطرى تجوس
يفترُّ بالشوق وبالعتاب ثغرُها العبوس
أشمّ وجهها الصبوحا
أضم صدرها الجموحا !
... ...
سألتُ عنها القادمين فى القوافلْ

فأخبرونى أنها ظلت بسيفها تقاتلْ ..
فى الليل تجارَ الرقيق عن خبائها
حين أغاروا ، ثم غادروا شقيقها ذبيحا
والأبَ عاجزا كسيحا
واختطفوها ، بينما الجيران يرنون من المنازل
يرتعدون جسدا وروحا
لا يجرؤون أن يغيثوا سيفها الطريحا !
... ...
(ساءلنى كافور عن حزنى
فقلت إنها تعيش الآن فى بيزنطة
شريدةً .. كالقطة
تصيح « كافوراه .. كافوراه .. »
فصاح فى غلامه أن يشترى جاريةً روميَّة
تُجلد كى تصيح « واروماه .. واروماه ..
.. لكى يكون العين بالعين
والسنُّ بالسنِّ !)

* * فى الليل ؛ فى حضرة كافور ؛ أصابنى السأم
فى جلستى نمتُ .. ولم أنم
حلمت لحظةً بكا

وجندك الشجعان يهتفون : سيف الدولة .
وأنت شمس تختفي فى هالة الغبار عند الجولة
ممتطياً جوادك الأشهب ، شاهراً حسامك الطويل المهلكا
تصرخ فى وجه جنود الروم
بصيحة الحرب ، فتسقط العيونُ فى الحلقوم !
تخوض ، لا تبقى لهم إلى النجاة مسلكا
تهوى ، فلا غير الدماء والبكا
ثم تعود باسماً .. ومنهكا
والصبية الصغار يهتفون فى حلب :
« يا منقذ العرب »
« يا منقذ العرب »
حين تعود .. باسماً .. ومنهكا
حلمتُ لحظة بكا
حين غفوتُ
لكننى حين صحوتُ :
وجدت هذا السيد الرخوا
تصدر البهوا
يقص فى ندمانة عن سيفه الصارم
وسيفه فى غمده يأكله الصدأ !
وعندما يسقط جفناه الثقيلان ، وينكفىء ..

يبتسم الخادم .. !

.. تسألني جارتي أن أكترى للبيت حرّاسا

فقد طغى اللصوص فى مصر .. بلا رادع

فقلت : هذا سيفيَ القاطع

ضعيه خلف الباب . متراسا !

(ما حاجتي للسيف مشهورا

ما دمت قد جاورت كافورا ؟)

.. « عيدٌ بأية حال عدت يا عيدُ ؟

بما مضى ؟ أم لأرضى فيك تهويد ؟

« نامت نواطير مصر » عن عساكرها

وحاربت بدلاً منها الأناشيد !

ناديت : يا نيل هل تجرى المياه دماً

لكى تفيض ، ويصحو الأهل إن نودوا ؟

« عيد بأية حال عدت ياعيد ؟

(حزيران ١٩٦٨)

تعليق على ما حدث

.ردةٌ فى عروة السترةِ :
ماذا تلدين الآنَ ؟
طفلاً .. أم جريمةْ ؟
م تنوحين على بوّابةِ القدس القديمة ؟
عادت الخيلُ من المشرقِ ،
عاد (الحسنُ الأعْصَمُ) والموتُ المغيْر
بالرداءِ الأرجوانىِّ ، وبالوجه اللصوصىّ ،
وبالسيف الأجيرْ
فانظرى تمثاله الواقفَ فى الميدانِ ..
(يهتزُّ مع الريح . !)
انظرى من فرجةِ الشبّاك :
أيدى صبيْةٍ مقطوعةً ..
مرفوعةً .. فوق السّنانْ
(.. مُرْدِفاً زوجتَه الحُبْلى عَلى ظهر الحصانْ)
أنظرى خيطَ الدمِ القانى على الأرضِ :
« هنا مَرَّ .. هنا »

فانفَقَأت تحت خُطى الجندِ ..
عيونُ الماءِ ،
واستلقت على التربةِ .. قاماتُ السنابلْ .
آهِ .. ها نحن جياعُ الأرضِ نصطفُّ ..
لكى يُلْقى لنا عهدَ الأمانْ .
ينقش السكةَ باسمِ المَلكِ الغالبِ ،
يُلقى خطبةَ الجمعةِ باسم الملكِ الغالبِ ،
يَرْقى منبرَ المسجِدِ ..
بالسيفِ الذى يبقُرُ أحشاءَ الحواملْ .

ه ه ه

تلدينَ الآن مَنْ يحبو ..
فلا تسنده الأيدى ،
ومن يمشى .. فلا يرفع عينيه إلى الناسِ ،
ومن يخطفه النخّاسُ :
قد يصبح مملوكاً يلوطون به فى القصرِ ،
يُلقون به فى ساحةِ الحربِ ..
لقاءَ النصرِ ،

هذا قدرُ المهزومِ :
لا أرضَ .. ولا مال .
ولا بيتَ يردُّ البابَ فيه ..
دون أن يطرقه جابٍ ..
وجنديٌّ رأى زوجتَه الحسناءَ فى البيتِ المقابلْ)
أنظرى أُمتكِ الأولى العظيمة
أصبحت : شرذمةً من جثثِ القتلى ،
وشحّاذين يَستَجْدون عطفَ السيفِ ،
والمالَ الذى ينثره الغازى ..
فَيَهْوى ما تبقّى من رجالٍ ..
وأرومةْ .
أنظرى ..
لا تفزعى من جرعة الخزيِ ،
انظرى ..
حتى تقيئى ما بأحشائكِ ..
من دفءِ الأمومة .

* * *

تُقفْرُ الأسواقُ يومين ..
وتعتاد على « النقد » الجديدْ

تشتكى الأضلاعُ يومين ..
وتعتاد على السوطِ الجديدْ
يسكت المذياعُ يومين ..
ويعتاد على الصوت الجديدْ
وأنا منتظرٌ .. جنب فراشكْ
جالسٌ أرقب فى خمّى ارتعاشكْ ـــ
صرخةَ الطفلِ الذى يفتح عينيهِ ..
على مرأى الجنود !

(يوليو ١٩٧٠)

فقرات من كتاب الموت

– ١ –

كلَّ صباحٍ ..
أفتح الصنبورَ فى إرهاقْ
مغتسلاً فى مائهِ الرقراقْ
فيسقط الماءُ على يدى .. دَمًا !
... ...
وعندما ..
أجلس للطعام .. مُرغما :
أبصر فى دوائر الأطباقْ
جماجما ..
جماجما ..
مفغورةَ الأفواه والأحداق !!

– ٢ –

أحفظ رأسى فى الخزائن الحديدية

وعندما أبدأ رحلتى النهاريّة
أحمل فى مكانها .. مذياعا !
(أنشر حولىَ البياناتِ الحماسيّةَ .. والصدَاعا)
وبعد أن أعود فى ختام جولتى المسائيّة
أحمل فى مكان رأسىْ الحقيقيّة :
.. قنّينةَ الخمرِ الزجاجيّة !

- ٣ -

أعودُ مخموراً إلى بيتىَ ..
فى الليلِ الأخيرْ
يوقفُنى الشرْطىُّ فى الشارعِ .. للشُّبْهة
يوقفُنى .. برهة !
وبعد أن أرشُوَهُ .. أواصل المسير !
... ...
توقفنى المرأةُ ..
فى استنادها المثير
على عمود الضوءِ :
(كانت مصلقاتُ « الفَتْحِ » و « الجَبْهَةْ »
تملأُ خلفَ ظهرها العمودا !)

تسألني لفافةٌ :
(لم يترك الشرطيّ ..
واحدةً من تبغها الليليّ
تسألني إن كنتُ أمضي ليلتي .. وحيدا
وعندما أرفع وجهي نحوِها ::
سعيدا
أبصر خلف ظهرها : شهيدا
معلَّقا على الحائطِ ، ناصعَ الجبهة
تغوص عيناهُ .. كنَصْلَيْنِ رصاصيَّيْن
أصرخُ من رهافة الحدَّين
.. أمضي بلا وجهة !!

– ٤ –

فاجأني الخريفُ في نيسان
وطائرُ السمَّان ..
حطَّ على شواطىء البحر الشماليّة
طلبتُ من تحبُّه نفسي .. قبيل النومْ
فلم أجدْ .. إلا عذابَ الصوم

طلبتُ من تحبُّه نفسى
(فى الظلّ والشمس)
فلم أجد .. نفسى !!

... ...

وها أنا خلف النوافذ الزجاجيّة
أرقبُ عند المُغرب الشاحبْ :
طائرىَ الغائبْ !

(١٩٦٩)

الحداد يليق بقطر الندى

جوقة :

قَطْرُ الندى .. يا خالْ
مُهْرٌ بلا خَيَّالْ
... ...
قطرُ الندى .. يا عينْ
أميرةُ الوجهين
.. ..

صوت:

كان (خمارويهُ) راقداً على بحيرة الزئبقْ
وكانت المغنّياتُ والبناتُ الحورْ
يطأن فوق المِسْكِ والكافورْ .
والفقراءُ والدراويشُ أمام قصره المُغْلَقْ
ينتظرون الذَهبَ المبذورْ
ينتظرون حفنةً صغيرةً .. من نُورْ .

جوقة :

فطر الندى .. يا عين
أميرةُ الوجهينْ
.. ..
قطر الندى ..
قطر الندى ..

صوت:
هودجُها يخترقُ الصحْراءْ
تسبقه الأنباءْ .
أمامها الفُرسانُ ألف ألف
وخلفها الخصْيانُ ألف ألف
تعبر فى سيناء ..
جوقة :
قطر الندى .. يا ليلْ
تسقط تحت الخيلْ
.. ..
قطر الندى .. يا مصرْ
قطر الندى فى الأسرْ
.. ..

(استمرار):

تعبر فى سيناء

تعبر فى مضارب البَدْوِ ، وفى نضوبِ الماءْ

عند انتصاف الصيفْ .

تحلم بالوصولَ للأُردُنّ ..

ترخى أعنّةَ الخيولِ حول مائهِ ..

تغسلُ وجهَ الحزنْ

جوقة :

قطر الندى .. يا مصر

قطر الندى فى الأسر

قطر الندى ..

قطر الندى ..

الصوت والجوقة :

.. كان (خمارويهُ) راقداً على بحيرة الزئبقْ

فى نومةِ القيلُولةْ .

فمن تُرى ينقذُ هذه الأميرةَ المغلولَةْ ؟

من يا تُرى ينقذها ؟

من ياتُرى ينقذها ؟

بالسيفِ ..

أو .. بالحيلةْ ؟!

•

(١٩٦٩)

صفحات من كتاب الصيف والشتاء

١ - حمامة

حين سَرَتْ فى الشارعِ الضوضاءْ
واندفَعَتْ سيارةٌ مجنونةُ السائقْ
تطلق صوتَ بُوقها الزاعقْ
فى كبدِ الأشياءْ :
تَفَزَّعَتْ حمامةٌ بيضاء
(كانت على تمثالِ نهضةِ مصرْ ..
تَحْلُمُ فى استرخاءْ)
.. ..
طارتْ ، وحطَّتْ فوقَ قُبَّةِ الجامعةِ النحاسْ
لاهثةً ، تلتقط الأنفاسْ
وفجأةً : دندنت الساعةْ
ودقت الأجراسْ
فحلَّقَتْ فى الأفقِ .. مُرتاعةْ !
.. ..

أيتها الحمامةُ التى استقرّتْ
فوق رأسِ الجسرْ
(وعندما أدار شُرطىُّ المرورِ يَدَهُ ..
ظنته ناطوراً .. يصدُّ الطيرْ
فامتَلأتْ رعبا !)
أيتها الحمامةُ التعْبى :
دُورى على قباب هذه المدينةِ الحزينةْ
وأنشدى للموتِ فيها .. والأسى .. والذعرْ
حتى نرى عند قدومِ الفجرْ
جناحَكِ المُلقى ..
على قاعدةِ التمثالِ فى المدينةْ
.. وتعرفين راحةَ السكينة !

٢ - ساق صناعية

فى الفندقِ الذى نزلتُ فيه قبلَ عامْ
شاركنى الغرفةْ
فأغلق الشرفةْ
وعَلّقَ (السُتْرَةَ) فوق المشجب المُقَام

وعندما راى كتابَ (الحربِ والسلامْ)
بين يدىَّ : اربدَّ وجهُهُ ..
ورفَّ جفنُه .. رَفَّةْ
فغالبَ الرجفةْ
وقصَّ عن صَبِيَّةٍ طارحها الغرامْ
وكان عائداً من الحربِ .. بلا وسامْ
فلم تُطِقْ .. ضَعْفَهْ
ولم يجدْ ــ حين صحا ــ إلا بقايا الخمرِ والطعام !
.. ..
ثم روى حكايةً عن الدمِ الحرامْ
(.. الصحراءُ لم تُطِقْ رَشْفَةْ ..
فظلَّ فيها ، يشتكى رسغُه صَيْفَهْ ..)
وظلَّ يروى القصصَ الحزينةَ الختامْ
حتى تلاشى وجهُهُ
فى سُحُبِ الدخانِ والكلامْ
وعندما تحشرجَ الصوتُ بهِ ، وطالت الوقفةْ
أدرتُ رأسى عنه ..
حتى لا أرى دمعتَه العَفَّةْ
ومن خلايا جسدى : تفصَّدَ الحزنُ ..

وبلّل المسَامّْ

.. ..

وحين ظنّ أنني أنام
رأيته يخلع ساقه الصناعيةَ فى الظلام
مُصَعِّداً تنهيدةً..
قد أحرقَتْ جوفَهْ

٣ – شتاء عاصف

كان (ترامُ الرَّمْلْ) ..
مُتْعَباً ، كامرأةٍ فى أُخرياتِ الحَمْلْ
وكنتُ فى الشارعْ
أرى شتاءَ (الغضبِ الساطعْ)
يكتسح الأوراقَ والمعاطفا
وكانت الأحجارُ فى سكونها الناصعْ
مغسولةً بالمطرِ الذى توقَّفا
وكان فى المذياعْ
أغنيةٌ حزينةُ الإيقاعْ
عن (ظالمٍ لاقيتُ منه ما كفى ..)
قد (علّموه كيف يجفو .. فجفا)

جلستُ فوق الشاطىء اليابسْ
وكان موجُ البحرْ
يصفع خدَّ الصخر
وينطوى ــ حيناً ــ أمام وجهه العابسْ .
.. وترجعُ الأمواجْ
تنطحه برأسها المُهْتاجْ
ودون أن تَكُفَّ عن صراعها اليائس .. !
ودون أن تَكُفَّ عن صراعها اليائس .. !

مارس ١٩٦٩

تعليق على ماحدث فى مخيم الوحدات

- ١ -

قلتُ لكم مرارا
إن الطوابيرَ التى تمرُّ ..
فى استعراض عيد الفطر والجلاءْ .
(فتهتف النساءُ فى النوافذ انبهارا)
لا تصنع انتصارا .
إن المدافع التى تصطف على الحدود ، فى الصحارى
لا تطلق النيرانَ .. إلا حين تستدير للوراء .
إن الرصاصةَ التى ندفع فيها .. ثمنَ الكسرة والدواء :
لا تقتل الأعداء
لكنها تقتلنا .. إذا رفعنا صوتنا جهارا
تقتلنا ، وتقتل الصغارا !

- ٢ -

قلتُ لكم فى السنة البعيدة

عن خَطَرِ الجندىّ
عن قلبه الأعمى ، وعن همّته القعيدة
يحرس مَنْ يمنحُه راتبَه الشهرىّ
وزيّه الرسمىّ
ليرهبَ الخصومُ بالجعجعةِ الجوفاءِ
والقعقعة الشديدة
لكنه .. إن يحِن الموتُ ..
فداء الوطن المقهور والعقيدة :
فرّ من الميدانْ
وحاصَرَ السلطانْ
واغتَصَبَ الكرسىّ
وأعلن « الثورةَ » فى المذياع والجريدة !
- ٣ -

قلتُ لكم كثيرا
إن كان لابدّ من هذه الذريّة اللعينة
فليسكنوا الخنادقَ الحصينة
(متخذين من مخافر الحدود .. دُورا)
لو دخل الواحدُ منهم هذه المدينة :

يدخلها .. حسيرا
يلقى سلاحه .. على أبوابها الأمينة
لأنه .. لا يستقيم مَرَحُ الطفلِ ..
وحكمةُ الأب الرزينة
مع المُسَدّس المدلّى من حزام الخصرِ ..
فى السُّوقِ ..
وفى مجالس الشورى

• • •

قلتُ لكم ..
لكنكم ..
لم تسمعوا هذا العبثْ
ففاضت النارُ على المخيّماتْ
وفاضت .. الجثثْ !
وفاضت الخُوذاتُ والمدرّعاتْ

(سبتمبر ١٩٧٠)

ميتة عصرية

- ١ -

فتح المذياعَ .. واستلقى !
وكان القدحُ الساخنُ ..
فى وحدته المستغرقةْ .
(.. يدخل الطيفُ الذى يهبط .. بغتةْ
يسكتُ المذياعُ .. سكتةْ ...)
ـــ (موجز الأنباءِ) ..
.. ألقت يدُه السيجارةَ المحترقةْ
صرَّت النافذةُ المنغلقة
.. ..
(.. يعبر الغرفةَ :
فوق الحائط الأزرقِ .. صورةْ
ظَلَّ يَجْلو تحتها خنجرَه .. مبتسما)
.. ..
مَدَّ ساقيهِ ،
وكان الرعبُ فى عينيهِ ..

صار الصوتُ والموتُ
عدواً واحداً
منقسما !

. . .

ظل فى مقعدهِ ..
سار الترامْ
وهو فى مقعدهِ ..
كلَّتْ يدا بائعةِ الخبز الصغيرةْ
وهو فى مقعدهِ ..
كفَّ فحيحُ الصمتِ فى المذياعِ ،
وانساب « السلام »
وهو فى مقعدهِ ..
— (موجُز أنباء الصباحْ)
وهو فى مقعدهِ ..
.. ..
فى يدهِ سيجارةٌ ملتصقةْ
وعلى الحائطِ .. صُورة !!

- ١ -

ـ من ذلك الهائمُ فى البريّةْ ؟
ينام تحت الشجرِ الملتفّ والقناطر الخيريّة ؟
ـ مولاى : هذا النيلُ ..
نيلُنا القديمْ !
ـ أين تُرى يعملُ .. أو يقيمْ ؟
ـ مولاى :
كنا صبيّةً نندسُّ فى ثيابه الصيفيّة
فكيف لا تَذْكُرُهُ ؟
وهو الذى يُذْكَرُ فى المذياعِ والقصائد الشعريّة ؟
ـ هل كان قائدا ؟
ـ مولاىَ : ليس قائداً .
لكنما السياحُ فى مطالع الأعوامْ
يأتون كى يروه ..
ـ آهٍ .. ويُصَوِّرونه لكيِ يُشَهِّروا بنا
بوجهه الباكى .. وكوفيّته القطنية
.. تعالَ كى نودعه فى ملجأ الأيتامْ .
ـ مولاى :
هكذا تحبُّه الصبايا .. والرعاةُ .. والأغنام

وأمُّ كلثومٍ تغنى له ..
في وَصْلتها الشهريّة !
ــ النيلُ !
أين يا تُرى سمعتُ عنه قبل اليومْ ؟!
أليس ذلك الذى ..
كان يضاجعُ العذارى !؟
ويحب الدمْ !؟
ــ مولاى : قد تساقطت أسنانه فى الفمْ
ولم يَعُدْ يقْوى على الحبِّ .. أو الفروسيّة
ــ لابد أن يبرز لى أوراقَه الشخصيّة
فهو صَمُوت !
يصادق الرعاعَ ..
يهبط القُرى ..
ويدخل البيوتْ ..
ويحمل العشاقَ فى الزوارق الليليّة
ــ مولاى ؟ هذا النيلْ .. !!
ــ لا شأنَ لى بنيلك المُشرَّد المجهولْ
أريد أن يبرز لى أوراقَه الرسميّة :

شهادة الميلادِ .. والتطعيم .. والتأجيلْ
والموطنِ الأصليّ .. والجنسيّة
.. حتى يمارسَ الحريّة !

- ٣ -

.. ويُلقى المعلمُ مقطوعةَ الدرسِ ،
فى نصف ساعة :
(ستبقى السنابلْ ..
وتبقى البلابلْ ..
تغرّد فى أرضنا .. فى وداعةْ ..)
ويكتب كلُّ الصغارِ بصدقٍ وطاعةْ :
(ستبقى القنابلْ ..
وتبقى الرسائلْ ..
نُبلّغها أهلَنا .. فى بريدِ الإذاعة)

(١٩٧٠)

كادت تقولُ لِى « مَنْ أنتْ ؟ »

.. ..

(.. العقربُ الأسودُ كان يلدغُ الشمسَ ..

وعيناها الشهّيتابن تلمعان !)

ـــ آأنتَ ؟!

لكنّى رددتُ بابَ وجهى .. واستكنتْ

(.. عرفتُ أنّها ..

تنسى حزامَ خصرها .

فى العرباتِ الفارهة !

• • •

أسقطُ فى أنيابِ اللحظاتِ الدنسةْ

أتشاغلُ بالرشفةِ من كُوب الصمت المكسور

بمطاردةِ فَرَاشِ الوهمِ المخمور

أتلاشى فى الخيطِ الواهنْ :

بما بين شُرُوعِ الخنجرِ .. والرقَبَةْ

ما بين القدمِ العارية وبين الصحراء الملتهبة

ما بين الطفلةِ .. والعصفورَ !

• • •

يهتزُّ قرطُها الطويلْ ..
يراقصُ ارتعاشَ ظلِّه ..
على تلفُّتَاتِ العُنُقِ الجميلْ
وعندما تلفُظُ بذْرَ الفاكهةْ
وتطفىءُ التبغةَ فى المنفضةِ العتيقةِ الطرازْ
تقول عيناها : استرح !
والشفتان .. شوكتان !!

• • •

(تبقَيْنَ أنتِ : شبَحاً يفصلُ بين الأخوين
وعندما يفورُ كأسُ الجعةِ المملوءُ ..
فى يدِ الكبيرْ :
يقتلُكِ المقتولُ مرتين !
أتأذنين لى بمعطفى
أُخفى بهِ ..
عورةَ هذا القمرِ الغارقِ فى البحيرة
عورةَ هذا المتسول الأمير

وهو يحاورُ الظلالَ من شُجيرةٍ إلى شجيرة
يطالعُ الكفَّ لعصفورٍ مُكَسَّرِ الساقين
يلقطُ حَبَّةَ العينين
لأنه صَدَّقَ ــ ذاتَ ليلةٍ مَضَت ــ
عطاءَ فمكَ الصغيرْ ..
عطاءَ حُلمكِ القصير ..

ربـــــــاب

– ١ –

جلستُنا الأولى : وعيناكِ المليئتانِ بالفضولْ ..
تفتّشان عن بدايةِ الحديثِ ،
وابتسامةٌ خجولْ ..
فى شفتيك العذبتين ، وارتباكُنا يطولْ ..
وفى لحظاتِ الصمتِ والظمأْ .
نقرتُ فوق مسند المقعدِ
قلتُ ما يقال عن رداءة الطقسِ ،
تسمّرتْ عيناى فى استدارة الياقةِ
فى معطفكِ الجميلْ .
وكان صوتُك المغنّى يتحسس الطريقَ فى شرايينى ،
ويمسح الصدأْ
وكنتُ ألوى فى رباط عُنُقى ،
أربتُ ظهرَ قلقى ،
أمسح خيطَ العَرَقِ الضئيلْ .
نصر : شرعاً فى زجاج البابِ ،

موت الزخرف المنقوشِ فى مفارش الموائدَ ،
الوردةَ .. وهى تنحنى فى الكوب ..
شفّها الذبولْ .

.. ..

ليلتَها : عيناكِ هاتان المليئتان بالفضولْ
طاردتانى لحظةً بلحظةٍ ..
فى دورانِ السلّم الطويلْ
وفى سريرى ظلتا تغنّيان آخرَ الليلِ
وحين ضاق الصدرُ بالحنين .. وامتلأْ
رفرفتا حولى
فقلتُ .. قلتُ لهما كلَّ الذى أردتُ أن أقولْ ..

• • •

(.. كنا جارين طويلا
وخليج عيونٍ خضرٍ ترسو فيه
أشرعهُ الشوقْ
قلبى ما كاد يشبُّ عن الطوقْ
حتى أبحَرَ فى عينيها الواسعتين ..
برحلته الأولى
.. لكننى أشهدها ــ الليلةَ ــ تتكىءُ عليْهِ ..

كما كانت تتكىءُ عليّ !
شيك فى إصبعها خاتمَه الذهبيّ
تمرّ على جبهته بأناملها الرخصة .
. .. .
هل تهجرنى الأحزان ؟
حيناً أشهد فاتنتى تستدفىء ..
فى أحضان القرصانْ ؟)

– ٢ –

تمع وجهَكِ المضىءَ .. يا ربابْ
فى مستطيل النورِ عندما يشعُّ ..
فى انفراجِ بابْ
فى وَهَج اللفافةِ الأخيرةْ
لمعة المنافض المزوّقةْ
لمسات اللوحة المعلّقةْ
فى ثورةِ الفَرَاشِ فى السقف ،
وفى انغلاقة الكتابْ
فى ذوبان الثلج فى الأكوابْ

فى رنّة الملاعق الصغيرةْ
فى صمتة المذياع برهةً قصيرةْ
فى ثَنيّات الظّل فى الثيابْ
فى غبشِ النوافذ الصامتِ ..
بعد أن ينقشع الضباب .

• • •

(.. بالريح المقهورةْ
بالأمكنةِ المهجورةْ
بسنى الحبّ الغاربْ
بالقمر الشاحبْ
وبأعوامى الستة عشرْ
وبخصلة شَعْرْ :
أقسم ألا يسقط قلبى فى ..
شَرَكِ المذنب الأسودْ .
ألا أفتح ــ يوماً هذا البابَ الموصد !)

- ٣ -

كيف ضعفتُ فى نهاية المطاف ؟

وارتحت فى عينيك من عبثى ؟
وكل شىءٍ حولنا يُمْلى علينا أن نخاف !؟
.. لكننى أنزع قلبى من نعومة البدءِ
ومن ليونة الدفءِ ..
وأحتمى — كالسلحفاة — بالغلاف !!

فصل من قصة حب

لها حقيبةٌ مدلاّة ، وشَعْر غَجَرى !
(عرفتُ عنها القصص الكثيرة :
على أريكة القطارْ ..
ضاجعها اثنانِ ،
وخلف ساتر الغارات فى الميدانِ .. فى الظهيرة .
.. وضاجَعَتْها امرأةٌ على البلاج الذهبىِّ
وجسمها الخارج من محارة البحرِ ..
مُنَدَّى باللآلىء الصغيرة !)

• • •

حين التقينا : لم تسلْ من أنتَ ..
أو من أين !؟
وقبَّلَتْنى خلسةً ونحن فى المترو ..

مُحاصرتُن .. واقفينْ !
وقبلتنى وأنا أُخرج مفتاحى ..
أمام غرفتى الفقيرة !
وقبلتنى .. حالما أَغْلَقَت البابَ وراء ظهرها ..
لامعةَ العينْين !!

• • •

لا نهدُها (اليمامةُ التى تهم بانطلاقها)
ولا انحسار الثوب فوق ساقها
هو الذى حاصرّنى فى الجسد — الجزيرة .
لكنه .. شىءٌ بها .. كأنه اليتمُ ..
كأنه الفرارْ ..
يذوب ما بين ذراعىَّ : فتهدأ السريرة
وتلتوى الأناملُ البيضاء حول كَتِفى ..
كأنما نحن : الغريق .. والحطام الخَشَبى !
تمسك بى ..
فى لحظة احتراقها ..
فى لحظة التخلّىِ عن عناقها !
تمسك بى ..
حتى مع استرخاءة النوم القصيرة

اذا انفلتتْ من يديها

وهيَ فى استغراقها !!

وصار بيتى بيتنا معاً ، وصارْ ..

أرجوحةً وثيرة .

وصارت الألفةُ ثوباً واحدا

نلبسه تحت جلودنا

فلا يبلى ..

ولا يلحقه الغبارْ !

عاريةً — إلا من الحب — تروح وتجىءْ

يأتى غناؤها بصوتها الدافىء

وهى ترش الماءَ فى الحمّامِ ،

أو .. جالسةً على الأريكة الأثيرةْ

وهى تُسَوِّى شعرَها ،

أو .. وهى عند النارْ

تُعِد فيها قهوةَ الافطارْ

أو .. تمنح الرونقَ للأشياءِ

فى لمستها الخبيرة

تكوى المناديلَ الحريريَّة .. والتنُّورة

أو تمسح الغبارَ حول صورة !

وها أنا بعد رحيلها المفاجئ
أعمى بلا بصيرة .
فتشتُ عنها كلَّ حانات المدينة الكبيرة
وغرفَ الطلابِ ..
والمستشفياتِ ..
والملاجئ ..
لكنني لم أرَ غير الوحشة المريرة
وذكرياتها المنثورة
في البيت ، في مكانها ..
تنتظر اليدَ الأميرة
تنتظر الخيطَ .. الذي ينظم اللآلئ .

• • •

ـــ كأسكَ !
ـــ حان موعد الاغلاق .
ـــ لم تبق الا قطرةٌ أخيرة .
ـــ كأسكَ !
.. لن تعيدَها الأشواق !!

أتركُ كلَّ شيء في مكانهِ :
الكتابَ ، والقنبلةَ الموقوتةْ
وقدحَ القهوة ساخناً ،
وصيدليةَ المنزل ،
واسطوانةَ الغناءْ .
والبابَ مفغورَ الفمِ ،
.. البابَ .. وعينَ القطةِ الياقوتةْ .
أتركُ كل شيء في مكانه ،
وأعبرُ الشوارعَ الضوضاءْ
مخلّفاً خلفي : زحامَ السوق ..
والنافورةَ الحمراءَ ..
والهياكلَ الصخريّةَ المنحوتةْ

أخرج للصحراء !
أصبح كلباً دامىَ المخالبْ
أنبش حتى أجدَ الجثةَ ،

حتى أقضم الموتَ الذى يدنّس الترائب !
أدسُّ فى الحفرةِ وجهى الشرهَ المحمومْ
تصبحُ بوقاً مصمتاً حول فمى المنكفىءِ المزموم
وصارخاً فى رحمِ الأرضِ ..
أصيحُ : يا بساطَ البلدِ المهزومْ ..
لا تنسحبْ من تحت أقدامى ..
فتسقط الأشياءْ ..
من رفّها الساكن فى خزانة التاريخِ ،
تسقط المسمَّيات والأسماء !
أصرخ .. ليس يَصِلُ الصوتُ
أصرخ .. لايجيب إلا عَرَقُ التربةِ والسكونُ والموتُ
ويستديرُ حول رأسىَ الطنينُ ،
ويدوِّم الهواءْ
أسقط واقفاً ..
وخائفاً .
أن يحملَ الصدى ندائى للهَوَائيَّاتِ ..
فوق أسطح البيوتْ
أن تفشىَ الرمالُ صوتىَ المضوءَ ،

صوتىَ المكبوتْ !
أبكى إلى أن يستدير الدمع فى الحفرةْ
أبكى .. إلى أن تهدأ الثورةْ
أبكى إلى أن ترسخ الحروفُ فى ذاكرة الترابْ
أعود ضالاً ..
أتبعُ الأسلاكَ ، والدمَ الرُّكامَ ،
والدمَ المنسابْ
أبحث عن مدينتى التى هجرتُها ..
فلا أراها !
أبحث عن مدينتى :
يا إرم العمادْ
يا إرم العمادْ
يا بلدَ الأوغادِ والأمجادْ
رُدِّى إلىَّ : صفحةَ الكتابْ
وقدحَ القهوةِ .. واضطجاعتى الحميمةْ
فيرجعُ الصدى ..
كأنه اسطوانةٌ قديمةْ :
يا إرم العمادْ
يا إرم العمادْ

رُدِّى إليه : صهوةَ الجوادْ
وكُتُبَ السحرِ ..
وبعضَ الخبزِ فى زوّادةِ السفَرْ
فقلبه الذى انشطرْ
يرقد فوق زهرة اللوتسِ فى المنفى ،
يطالع المكتوبْ
منتظراً حتى يفورَ الكوبْ
فى يدهِ ،
يدير فوق جسمه رداءَه المقلوبْ
لكى يعود فى مواسم الحصاد
أغنيةً .. أو وَرْدَةً
للباحثين عن طريق العودةْ !

حكاية المدينة الفضية

- ١ -

كنتُ لا أحمل إلا قلماً بين ضلوعى .
كنت لا أحمل إلا .. قلمى .
فى يدى : خمسُ مرايا
تعكس الضوءَ (الذى يسرى إليها من دمى)
.. طارقاً بابَ المدينة :
ــ « إفتحوا الباب »
فما ردَّ الحرسْ
ــ « افتحوا البابَ .. أنا أطلب ظلاً .. »
قيل : « كلاَّ »
.. ..
أمطرى يا قبضةَ الزبْدِ التى تُدعى سُحُبْ
أمطرى رغوتكِ الجوفاءَ فى كوب اللهبْ
هذه الأسوار ما رقّتْ لدقاتى الحزينةْ
وشعاعُ القبة الفضيَّة الملساءِ يغلى ..
فى مراياى الثمينةْ

آه لو أملك سيفاً للصراع
آه لو أملك خمسين ذراع :
لتسلمت — بإيمانى الهرقلى — مفاتيح المدينة
آه .. لكنى بلا حتى .. مؤونة !

• • •

أيها العشب الذى ينضحُ حُمَّى
إننى أنشُدُ فى جنبيك .. حلما
(.. واستكانتْ شفةُ الوهج على وجهى طويلا ..)
ربما يُفتح هذا البابُ يوما
أيها العشب الذى ينضح حمّى
همسُنا مطفأة العينين .. دَوْما !
يا طريق التلّ (حيث القبة الملساء تبدو ..
صنماً ضخماً تحدى المستحيلا)
يا طريق التلّ :
ما زالت على جنبيك آلافُ النفاياتِ ..
لسكان القباب المصمتةْ
من قمامات البقايا الميّتةْ

وزجاجات خمورٍ فارغة
وكلابٍ والغةْ
ورمادٍ ، وورقْ !
آهِ .. يا ذكرى الحنين المحترقْ
آه ، كم كنّا ــ كما كنت ــ نرشُّ النورَ والشوق النبيلا
وتهدجنا غناءً ..
وتهدجنا بكاءً ..
وتهدجنا .. فُضُولا
ثم .. لم نلقَ من الحبِّ عدا : باباً بخيلا !!

- ٢ -

فرقعتْ فى الصمت حولى عجلاتُ المركبةْ
ــ « أوقِفِ الخيلَ »
أطلّتْ :
ــ « من تُرى أنتَ ؟ »
فأومأتُ مجيبا
قالت : « اصعدْ »

ـــ « آهِ ياذات العيون الطيّبةْ
كلُّ شيءٍ يتنهّدْ
كل شيء فى دمى .. لا يتحدّدْ
أنا لا أملك حتى كلماتِ الشكرِ ..
حتى كلماتُ الشكرِ .. ولّتْ !
ـــ « أغريبٌ ؟ »
قلتُ : ما عدتُ غريبا
بيتنا كان على ربوة نجمةْ
كم قرأنا فيه عن سحر لياليكِ كثيرا
عن جبينٍ يهب العمرَ تناهيدَ ورحمةْ
ورسَمْنَا وجهكِ المعبودَ فوق المنزلِ
وعلى صدر الربيع المقبلِ
وتعشقناكِ : حزناً أرجوانيّا أميرا
وتعشقناكِ : شَعْراً كستنائياً غزيرا
وتعشقناكِ : ثوباً جدلته الحورُ ..
من زهْو المطرْ
وعشقنا فيكِ : حتى خُفّكِ المجلوبَ من وادى القمر !
قالت : « اهدأ ..
سوف تحكى لى هناكْ .. »

وأشارت نحو قصرِ القبّةِ الملساءِ ،
ثم استطردَتْ :
إنه مُلْكُ أبى » !
عندما كان (سليمانُ) وليّا
لم يكن يملك هذا القصرَ ذا الملون باب
قيل مكتوبٌ على جدرانه الماسية الزرقاءِ ..
أحلامُ شبابْ
قيل فى الساحةِ نافورةُ خلدْ
وعلى الباب نقوشٌ أثريّة .
آهِ .. يا حراسَه .. هذا أنا !!
إرفعوا الأيدى وأدوا لى التحيّةْ
ارفعوا المزلاجَ .. فالركبُ يسيرْ
« يد مولاتى » ..
ومدت يدَها (بدرُ البدورْ)
نصعد السلّم : يا معراجُ ما كنتُ نبيّا !
أنا فى البلّور حولى فى السنا : ألفُ أنا
فامض يا معراجنا نحو الجَنَاحْ
واعزفى يا جوقةَ الميلادِ لحنَ الإفتتاح !

• • •

سكرتْ كاساتنا من خمر بابلِ
ألف خيطٍ فى دمانا .. يستبدّ
ـــ « آه يا سيدتى : أنتِ مَلَكْ ..
أنا لاأحمل إلا قلماً بين ضلوعى ..
فخذيه .. إنه أثمن ما عندى .. خذيه »
ومشت راحتُها فوق جبينى ،
هتف بى : « شهريار »
ـــ « شهرزادى : أسكبى شَهْدَ الرحيق المتواصلْ
ثم قُصّى من حكاياكِ الجديدةْ
من زمانٍ لم أعُدْ أسمع أشياءَ جديدةْ
ـــ « لبيكَ يا مولاىَ .. قالوا .. ..
.. ..
ثم لم نملكْ قُوانا
وعلى الجدران لوحاتٌ فريدةْ
لرغيفٍ .. وزجاجاتٍ من الخمرِ .. وراعٍ ..
وقطيع !
(آهِ .. ما أقسى الجدارْ
عندما ينهض فى وجهِ الشروقْ !

ربما نُنفق كلّ العمرِ كي ننقب ثغرهْ
ليمرَّ النورُ للأجيالِ .. مرّةْ !
.. ..
ربما لو لم يكن هذا الجدارْ :
ما عرفنا قيمةَ الضوءِ الطليقْ !!)

– ٣ –

شَفَةٌ ثلجيّةٌ فى جبهتى تسرى .. مُلحَّةْ
« قد أتى الصبحُ... فَقُمْ »
شدَّنى السيافُ من أشهى حُلُمْ
حاملاً أمر الأميرةْ
ـــ « أنا يا مسرورُ معشوقُ الأميرةْ
ليلةٌ واحدةٌ تُقضى .. بدَمْ ؟!
يا ترى من كان فينا شهريار ؟!
أنا يا مسرورْ .. »
(مسرورٌ على الباب : رخامْ)
ـــ « أنا يامسرورُ لم أسعد من الدنيا بفرحة
أنا لم أبلغ سوى عشرينَ عامْ

خذ ثيابى .. خذ مراياى المنيرةْ .. »
— « حسناً ، فاهربْ من الباب الذى فى آخر الممشى
ولا ترجعْ هنا »
يا طريق التلّ حيث القبةُ الملساءُ .. خلفى
حيث مازالت على جنبيك آلافُ النفاياتِ ..
لسكان المدينةْ :
الكلابُ الوالغةْ ..
وزجاجاتُ الخمور الفارغةْ ..
وأنا .. أحمل أقدامى الحزينة !!

الضحك فى دقيقة الحداد !

.. ووقفنا فى العراءْ
ببقايا أغْمِدَةْ .
انتظرنا ان يمرُّ الشعراءْ
ربما يمنحنا دفءُ الغناء
ربما .. ليلةَ حبٍّ واحدةْ .
وتنصّتنا لوقع الخطوِ ، غربلْنا الهواءْ
لم يكن إلا .. سكونُ الصَحراءْ
وطنينُ الأفئدةْ !

• • •

عامٌ تحتَ الصِّفرِ .. صفْرَ اليدِ جاءْ
حين كنا فى ضمير الليل روحاً مجهدة .
طرَق الباب ، ونادى فى حياء

فاستدرنا فى فراش النوم ،
أحكمْنا الغطاءْ
وتركناه لهبَّات الرياح الباردةْ .

• • •

كنتُ فى المقهى ، وكان الببَّغاء
يقرأ الأنباءَ فى فئران حقل القمح ،
فوق القرَدَةْ
وهى تجترّ التراجيلَ ، وترنو للنساء .
.. ..
(ـــ رفعُ أثمان جميع الأسمدَةَ)
.. ..
.. النساءُ القططُ ـــ الأفراسُ ـــ سِمَّانُ العشاء
وعيونُ الرغبةِ الفئرانُ تبتلُّ بأصداء المُواءْ .
.. ..
(ـــ رفعُ سعر الصوفِ ..)
.. .. .. ما من فائدة !

كادت السيارةُ الحمراءُ أن تقصم ظهر السيدة
والنساءُ ــ القططُ ــ الأزياء يخلعن الرداء

.. ..
(ــ ثائرٌ يَقْتُلُ فى طهرانَ بالأمسِ ــ رئيسَ الوزراء)

.. ..
رقعة الشطرنج : مات الشاهُ ، دورُ الأبتداءْ ..
هزم الأبيضُ فيه اسْودَه
حين كنَّا فى ضمير الليل روحا مجهدةْ .

.. ..
تلعقُ الفئرانُ فى الجُحْر ترابَ الإشتهاء
وهى تجترُّ النراجيلَ ، وترنو للنساء
النساءِ ــ القططِ الكسلى ،

.. ..
.. .. (اشتباكٌ عسكرىٌ فى المساءْ)
برهةٌ : ترتفع الأعينُ عن طاولة الزهرِ وموسيقى النساء
تُبرِقُ النظرة من تحت الجفون الخامدة

.. ..
(مجلسُ الأمنِ يُوالى ..)
.. .. ويعود الإنحناءْ

تجلس العينُ على نقش البلاطِ القرفصاءْ
ثم تنساهُ ، وتطويها فنونُ العربدةْ !!
قال لى :
« ها هو بهوُ الأعمدةْ »

.. ..
من هنا مَرَّتْ خيولُ الخيلاءْ
من هنا مرتْ .. فلم يُدفنْ لها قتلى ،
ولم تُحقنْ دماء .
حطَّت الحدأةُ فوق المائدةْ
رفع النسرُ عن الشمسِ . يَدَهْ
فهوتْ ، والأرضُ غطَّاها الوباءْ .
.. ..
نقشةُ الجدرانِ فى قلبى ،
وفى عينى الرمالُ الراقدةْ
الرمالُ الرابضاتُ — اليومَ — من حول البناءْ
الرمالُ — الندمُ الحارقُ لى خبزٌ وماءْ .
يا بقايا المومياءْ :
نحن أسلمنا العيونَ الرَّمِدَةْ
حين أنكرناكِ قبل الفجرِ ..

(والفجرُ إلى اللحظةِ لم يأتِ ،)
وجاء ..
بدلاً منه : الوباء ،
كلما استشرَفَت النظرةُ أفقَ النور : شَمَّتْ جسدَهْ
فتراخت .. مُقْعدهْ ،
وانتظرنا الصيفَ فى فصل الشتاءْ
واغتسلنا ننشُدُ البرءَ نهارَ الأربعاء
ودعونا اللهَ أن يكشف عنا الغُمَّة المنعَقدةْ :
أعطنا ليلة حب واحدة
أعطنا ليلة طهر واحدة
أعطنا ليلة صدق واحدة
وتنسَّمْنا صدى الدعوةِ ، غربلْنا الهواء
لم يكن إلا .. الوباء
جَرَباً تحت الجُلودِ :
الظُّفْرُ لا يجدى ..
ولا يجدى الدواء !
جَرَبٌ أوغلَ . حتى الأفئدة !!

• • •

ووقفنا فى العراء
بقايا أغمدةْ ..
وتلفّتنا ، فأبصرنا عظامَ الشهداء
تتلوّى فى رمالِ الصحَراء
تقصد النيلَ .. لكى يمنحها جرعة ماء
فسقاها .. كَمَدَه !
ورأينا فى مرايا مائهِ أوجهنا ..
كنا عراةً تعساء
خلفنا يصطكُّ بابُ المصيدَةْ .
.. والشفاهُ المرغياتُ المزبدةْ .
تتبارى فى المتلفاتِ ،
تدقُّ المنضدةْ
ثم تنسلُّ اذا انفضَّ البكاء
تتلهّى بالصدور الناهدةْ
فى حوانيت الشواء ،
.. ..
.. ..
يا عصافير الشتاء :

لاَ تلومينى .. إذا الطوفانُ جاء

.. ..

(١٩٦٩)

(بيان)

أيها السادةُ : لم يبقَ اختيارْ
سقط المُهْرُ من الإعياءِ ،
وانحلّتْ سيورُ العَرَبةْ
ضاقت الدائرةُ السوداءُ حول الرقبةْ
صدرُنا يلمسُه السيفُ ،
وفى الظّهرِ : الجدار !
.. ..
أيها السادةُ : لم يبقَ انتظارْ
قد منعنا جزيةَ الصمتِ لمملوكٍ وعَبْدْ
وقَطَعنا شعرةَ الوالى « ابنِ هند »
ليس ما نخسرهُ الآنَ ..
سوى الرحلةِ من مقهى إلى مقهى ..
ومن عارٍ .. لعَارْ !!

- ١ -

على محطات القُرى ..
ترسو قطاراتُ السهادْ
فتطوى أجنحةُ الغبار فى استرخاءةِ الدُنُوّْ
والنسوةُ المتشحاتُ بالسوادْ
تحت المصابيحِ ، على أُرصفةِ الرسوّْ
ذابت عيونُهن فى التحديقِ والرُنُوّْ
علَّ وجوه الغائبين منذ أُعوام الحدادْ
تشرقُ من دائرةِ الأحزانِ والسُلُوّْ

.. ..

ينظرن .. حتى تتآكلَ العيونُ
تتآكلَ الليالى ،
تتآكل القطاراتُ من الرواجِ والغلوّْ
والغائبون فى ترابِ الوطنِ — العدوّْ
لا يرْجعون للبلادْ ..
لا يخلعون معطفَ الوحشةِ عن مناكبِ الأعيادْ !

- ٢ -

نافورةٌ حمراءْ .
طفل يبيع الفُلّ بين العَرَبات .
مقتولةٌ تنتظر السيّارةَ البيضاء .
كلبٌ يحكُّ أنفَه على عمود النورْ .
مقهى ، ومذياعٌ ، ونَرْدٌ صاخبٌ ، وطاولاتْ .
ألويةٌ مَلْويّةُ الأعناق فوق الساريات .
أنديةٌ ليليّة .
كتابةٌ ضوئية .
الصحفُ الداميةُ العنوانِ .. بيضُ الصفحاتْ .
حوائطٌ ، ومُلْصَقاتْ ..
تدعو لرؤية (الأبِ الجالسِ فوق الشجَرَةْ)
والثورةِ المنتصرة !

إيقاعات :

سرحانُ يا سرحانْ
والصمتُ قد هدَّكْ
حتَّى متى وحدَكْ
يَخْفِرُكَ السجَّانْ ؟

.. ..

نَقْتُلُ ، أو نُقْتَلْ
هذا الخيَارُ الصعبْ
وشلّنا بالرعبْ ..
تُرَدِّدُ العُزَّلْ

.. ..

فى البيتِ ، فى الميدانْ
نُقْتَلُ يا سرحان !

— ٣ —

أبخرةُ الشاى تدور فى الفناجين ، وتشرئبّ
يَلْتمُّ شملُ العائلةْ
.. إلا الذى فى الصحَرَاءِ القاحلةْ

يرقدُ فى أمعاءِ طائرٍ وذئْبْ

(يهبطُ من صورته المقابله

يلتفُّ حول رأسهِ الدامى شريطُ الحزنْ

يجلسُ قربَ الركنْ

يصغى إلى ثرثرةِ الأفواهِ والملاعقِ المُبْتَذَلَةْ

ينشقُّ فى وقفته .. نصفينْ

يصبُّ فى منتصف الفنجانِ .. قطرتينْ

من دمهِ ،

ينكسرُ الفنجانُ .. شظيتين)

ينكسرُ النسيانْ

وهو يعود باكياً إلى إطارِ الصوره المُجَلّلة

بآيةِ القرآنْ !

إيقاعات :

الدمُ قبلَ النومْ

نلبسه .. رداءا

والدمُ صار ماءا

يُراقُ كلَّ يومْ

.. ..

الدمُ فى الوسائدْ
بلونه الداكنْ
واللّبَنُ الساخنْ
تبيعُه الجرائدْ

.. .. ..

اللّبَنُ الفاسدْ
اللّبَنُ الفاسدْ
اللّبَنُ الفاسدْ
يُخْفى الدَمَ ـــ الشاهدْ

— ٤ —

أموتُ فى الفراشِ .. مثلما تموتُ العيرْ ،
أموتُ ، والنفيرْ ..
يدقُّ فى دمشقْ ..
أموت فى الشارعِ : فى العطورِ والأزياءْ
أموتُ ، والأعداءْ ..
تدوسُ وجهَ الحقّْ .

« وما بجسمي موضع إلا وفيه طعنةٌ برمحْ »
.. إلا وفيه جُرَحْ ،
إذَنْ .
« فلا نامت عيونُ الجُبَناء »

١٩٧٠

لا وقت للبكاء

لا وقتَ للبكاء .
فالعَلَمُ الذى تنكَسينَهُ .. على سرادقِ العزاء
مُنَكَّسٌ فى الشاطىء الآخرِ ،
والأبناء ..
يُستَشهدونَ كى يقيموه .. على « تبَّة »
العَلَمُ المنسوجُ من حلاوةِ النصر ومن مرارة النكبةْ
خيطاً من الحبِّ .. وخيطين من الدماء
العَلَمُ المنسوج من خيام اللاجئين للعراء
ومن مناديلِ وداعِ الأمَّهاتِ للجنود :
فى الشاطىء الآخرِ ..
مُلقىً فى العرى ..
ينهشُ فيه الدُّودْ ،
ينهشْ فيه الدودُ .. واليهودْ
فاخلعى من قلبكِ المفئود

فها على أبوابكِ السبعةِ ، يا طِيبَةُ ..
ياطيِّبَـــةَ الأسماءْ :
يُقْعِى أبو الهولِ ،
وتُقعى أمّةُ الأعداء
مجنونـة الأنيابِ والرغبةْ ..
تشربُ من دماءِ ابنائكِ قربةً .. قربةْ
تفرشُ أطفالكِ فى الأرضِ بساطاً ..
للمدرَّعاتِ والأحذيةِ الصلبةَ
وأنتِ تبكين على الأبناء ،
تبكين ؟
يا ساقيةً دائرةً ينكسر الحنينْ ..
فى قلبها ، ونيلُكِ الجارى على خدِّ النجوع
مجرى دموع
ضفافه : الأحزانُ والغربةْ ،
تبكين ؟ مَنَ تبكينْ ؟
وأنتِ طولَ العمر ـــ تشقَيْنَ ، وتحصدينْ ..
مرارةَ الخيبةْ
وأنتِ ـــ طولَ العمرـــ تبقَيْنَ ، وتُنجبينْ ..

مقاتلينَ .. فمقاتلينَ .. فى الحَلَبَةَ .

• • •

الشمسُ (هذه التى تأتى من الشرق بلا استحياء)
كيف تُرى تَمُرُّ فوق الضفة الأخرى ..
ولا تجيءُ مُطفَأه ؟
والنسمةُ التى تَمُرُّ فى هُبَوبها على مخيَّم الأعداء
كيف تُرى نَشُمُّها .. فلا تسدُّ الأنفَ ؟
أو تحترقُ الرئةْ ؟
وهذه الخرائطُ التى صارتْ بها سيناء
عِبَرِيَّةَ الأسماء
كيف نراها .. دون أن يصيبنا العمى ؟
والعارُ .. من أُمَّتنا المُجَزَّأة ؟
.. والطفلةُ الصغيرةُ العذبة
تُطلقُ — فوقَ البيتِ — « طيَّارتَها » البيضاء
كيف تُرى تكتُب فى كرَّاسةِ الإنشاء
عن بيتها المهدومِ فوق الأبِ .. واللعبةْ ؟
وأُمِّىَ التى تظلُّ فى فناءِ البيت مُنكَبَّةْ

مقروحةَ العينين ، مسترسلةَ الرثاءْ
تنكتُ بالعُودِ على التربة :
رأيتُها : الخنساءْ
ترثى شبابَها المستشهدين فى الصحراءْ .
رأيتُها : اسماءْ
تبكى ابنَها المقتولَ فى الكعبةْ ،
رأيتُها : شجرةَ الدرّ ..
تردُّ خلفها البابَ على جثمانِ (نجم الدّينْ)
تُغلِقُ صدرَها على الطعنةِ والسكّينْ
فالجندُ فى الدّلتا
ليس لهم أن ينظُروا إلى الوراء
أو يدفنوا الموتى
إلا صبيحةَ الغدِ المنتصرِ الميمونْ
.. ..
(.. والتينِ والزيتونْ
وطورِ سينينَ ، وهذا البلدِ المحزونْ
لقد رأيتُ يومَها : سفائنَ الإفرنجْ
تغوص تحت الموجْ .

وملكَ الإفرنجْ
يغوص تحت السرجْ .
ورايةَ الإفرنجْ
تغوص ، والأقدام تَفرِى وجهها المُعَوَجّْ ،
.. وها أنا ــ الآنَ ــ أرى فى غدكِ المكنونْ :
صيفاً كثيفَ الوَهجْ
ومُدُناً ترتجّْ
وسُفُناً لم تَنجْ
ونجمةً تسقطُ ــ فوق حائط المبكى ــ إلى الثرى
ورايةَ (العُقَابَ)
ساطعةً فى الأوجْ ..)

• • •

والتينِ والزيتونْ
وطورِ سينينَ ، وهذا البلدِ المحزونْ
لقد رأيتُ ليلةَ الثامنِ والعشرينَ ..
من سبتمبر الحزينْ :

•

رأيت فى هتافِ شعبىَ اجريح
(رأيتُ خلفَ الصورةَ)
وجهَكِ .. يا منصورة ،
وجهَ لويس التاسعِ المأسورِ فى يَدَىْ صبيح
.. ..
رأيتُ فى صبيحةِ الأوّلِ من تشرينْ
جندَكِ .. يا حطّينْ
يبكونَ ،
لا يدرونَ ..
أن كلَّ واحدٍ من الماشينَ
فيه .. صلاحُ الدّين !

(٢٨ سبتمبر ١٩٧٠)

العهْد الآتي

وقال الرب الاله هو ذا الانسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر .

العهد القديم
تك ٣ : ٢٢

مملكتي ليست من هذا العالم . لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون لكي لا أسلم إلى اليهود .

العهد الجديد
يو ١٨ : ٣٦

صلاة

أبانا الذى فى المَبَاحثِ . نحن رعاياكَ . باقٍ
لكَ الجبروتُ . وباقٍ لنا الملكوتُ . وباقٍ لمن
تَحْرُسُ الرَّهَبُوتُ .

. . .

تفردْتَ وحدكَ باليسرِ . إن اليمينَ لفي الخُسْرِ .
أمّا اليسارُ ففى العُسْرِ . إلا . الذين يُمَاشونَ .
إلا الذين يعيشونَ يَحْشُونَ بالصحفِ المشتراةِ
العيونَ .. فَيَعْشُونَ . إلا الذين يَشُونَ . وإلاَّ
الذين يُوَشُّون ياقات قمصانهم برباط السكوتْ !
تعاليتَ . ماذا يهمُّكَ ممن يذمُّكَ ؟ اليوم يومك
يرقى السجينُ إلى سُدَّة العرش ..
والعرشُ يصبح سجنا جديداً وأنتَ مكانكَ . قد

يتبدَّلُ رسمُكَ واسمُكَ . لكن جوهرك الفردَ
لا يتحوَّلُ . الصمتُ وشمكَ . والصمت وَشْـ
والصمت ــ حيث التفتُّ ــ يرين ويَسْمُكُ
بين خيوط يديكَ المشبّكتين المصمّغتين يلفُّ
الفراشةَ .. والعنكبوتْ .

• • •

أبانا الذى فى المباحثِ . كيف تموت .
وأغنيةُ الثورة الأبديةِ
ليست تموت !؟

١

(الاصحاح الأول)

فى البدءِ كنتُ رجلاً .. وامرأةً .. وشجرةْ .
كنتُ أباً .. وابناً .. وروحاً قُدُسا .
كنتُ الصباحَ .. والمسا ..
والحَدْقَةَ الثابتة المُدَوَّرةْ .
وكان عرشى حجراً على صفاف النهرْ
وكانت الشياهْ ..
ترعى ؛ وكان النحلُ حول الزَّهرْ ..
يطنُّ ؛ والإوزُّ يطفو فى بحيرةِ السكونِ ،
والحياةْ ..
تنبضُ ـــ كالطاحونةِ البعيدة !
حين رأيتُ أن كلَّ ماأراه
لاينقذُ القلبَ من المللْ !

... ...

(مبارزاتُ الديَكة
كانت هى التسليةَ الوحيدةْ
فى جلستى الوحيدة
بين غصونِ الشجرِ المشتبكةْ !)

(الاصحاح الثاني)

قلتُ لنفسى : لو نزلت الماء .. واغتسلت .. لانقسمتْ
(لو انقسمت .. لازدوجت .. وابتسمتْ)
وبعدما استحممتْ ..
تناسَجَ الزهرُ وشاحاً من حرارةِ الشفاهْ
لَفَفْتُ فيه جسدى المصطكَ .
(وكان عرشى طافياً .. كالفُلْكْ)
ورفَّ عصفورٌ على رأسى ؛ وحطَّ ينفض البَلَلْ
حدِّقتُ فى قرارةِ المياه
حدَّقتُ ؛ كان ماأراه
وجهى .. مكلّلاً بتاج الشوكْ !

(الاصحاح الثالث)

قلتُ : فليكنِ الحبُّ فى الأرض ، لكنّه لم يكُنْ !
قلتُ : فليذبِ النهرُ فى البحرِ ، والبحرُ فى السُّحْبِ ،
والسُّحُبُ فى الجدبِ ، والجدبُ فى الخصبِ ، ينبتَ
خبزاً ليسندَ قلب الجياعِ ، وعشباً لماشيةِ
الأرضِ ، ظلاً لمن يتغرَّبُ فى صحراء الشجنْ .
ورأيتُ ابنَ آدمَ — ينصبُ أسواره حول مزرعةِ
الله ، يبتاعُ من حوله حَرساً ، ويبيع لإخوتهِ
الخبزَ والماءَ ، يحتلبُ البقراتِ العجافَ لتعطى اللّبَنْ .
قلتُ فليكنِ الحبُّ فى الأرض ، لكنه لم يكن .
أصبح الحبُّ مِلكاً لمن يملكون الثمنْ .
... ...
ورأى الربُّ ذلك غيرَ حَسَنْ !

• • •

قلت : فليكنِ العدلُ فى الأرض ؛ عَيْنٌ بِعَيْنٍ وَسِنٌّ بِسنْ .
قلت : هل يأكُلُ الذئبُ ذئباً ، أو الشاةُ شاةً ؟
ولا تضعِ السيفَ فى عُنُقِ اثنين : طفلٍ .. وشيخٍ مُ

ورأيتُ ابنَ آدمَ يُرْدِى ابنَ آدمَ ، يُشعلُ فى
المدنِ النارَ ، يغرسُ خنجرَهُ فى بطونِ الحواملِ ،
يُلْقى أصابعَ أطفالهِ عَلَفاً للخيولِ ، يَقُصُّ الشفاهَ ء
ورُوداً تُزَيِّن مائدةَ النصرِ .. وهى تَئِنْ .
أصبحَ العدلُ موتاً ، وميزانه البندقية ، أبناؤهُ
صُلبوا فى الميادينِ ، أو شُنقوا فى زوايا المدنْ .
قلت : فليكنِ العدلُ فى الأرض ، لكنَّه لم يكنْ .
أصبح العدلُ ملكاً لمن جَلَسُوا فوق عرشِ الجماجم
بالطَّيلسانِ —
الكفَنْ .
... ...
ورأى الربُّ ذلكَ غير حسَنْ !

• • •

قلت : فليكنِ العقلُ فى الأرضِ ، تُصغى إلى صوْته المتَّزن .
قلت : هل يبتنى الطيرُ أعشاشه فى فم الأفعوانِ ،
هل الدُّودُ يسكنُ فى لهب النارِ ، والبُومُ هل
يضع الكُحلَ فى هدبِ عينيه ، هل يبذر الملحَ

مَنْ يرتجى القمحَ حين يدورُ الزمنْ .
ورأيت ابن آدمَ وهو يُجَنُّ ، فيقتلع الشجرَ المتطاولَ ،
يبصق فى البئرِ ، يلقى على صفحة النهر بالزيتِ ،
يَسْكُن فى البيتِ ؛ ثم يُخَبِّىءُ فى أسفل الباب
قنبلةَ الموتِ ، يُؤْوِي العقاربَ فى دفء أضلاعهِ ،
ويُوَرِّثُ ابناءَه دينَه .. واسمهُ .. وقميص الفِتَنْ .
أصبح العقلُ مُغترباً يتسوَّلُ ، يقذفه صِبْيَةٌ
بالحجارةِ ، يُوقفهُ الجندُ عند الحدودِ ، وتسحبُ
منه الحكوماتُ جنسيَّةَ الوطنيّ .. وتُدْرِجُهُ فى
قوائم من يكرهون الوطنْ .
قلتُ : فليكن العقلُ فى الأرضِ ، لكنَّه لم يكنْ .
سقطَ العقلُ فى دورةِ النفى والسجنِ .. حتّى يُجَنّ

... ...

ورأى الربُّ ذلك غيرَ حَسَنْ !

(الاصحاح الرابع)

قلتُ : فلتكن الريحُ فى الأرض ؛ تكنس هذا العَفَن
قلت : فلتكن الريحُ والدمُ ... تقتلعُ الريحُ هَشْهَشَ

الورقِ الذابل المُتشبِّثِ ، يندلع الدمُ حتى
الجذورِ فيزهرُها ويطهِّرها ، ثم يصعدُ فى
السُّوقِ .. والورقِ المُتَشَابِكِ . والثمر المُتَدَلِّى ؛
فيعصرُه العاصرون نبيذاً يزغرد فى كلِّ دنْ .
قلتُ : فليكن الدمُ نهراً من الشهد ينساب تحت فراديس عَدَنْ
هذه الأرضُ حسناءُ ، زينتُها الفقراءُ ، لهم تتطيَّبُ ،
يعطونها الحُبَّ ، تعطيهم النسلَ والكبرياءْ .
قلتَ : لا يسكن الأغنياءُ بها . الأغنياءُ الذين
يَصُوغونَ من عَرَقِ الأجراءِ نُقُودَ زنا .. ولآلِىءَ
تاجٍ . وأقراطَ عاجٍ .. ومسبحةً للرياءْ .
إننى أولُ الفقراء الذين يعيشون مُغْتربينَ ،
يموتون مُحْتسبين لدىَّ العزاءْ .
قلت : فلتكن الأرضُ لى ... ولَهُمْ !
(وأنا بينهم)
حين أخلع عنى ثيابَ السماءْ .
فأنا أَتَقَدَّسُ — فى صرخة الجوعِ — فوق الفراش الخَشِنْ !

(الاصحاح الخامس)

حَدَّقتُ فى الصخر ، وفى اليَنْبوعْ
رأيتُ وجهى فى سِمات الجُوعْ !
حدَّقت فى جَبينىَ المَقْلُوبْ
رَأيْتنى : الصليبَ والمصلوبْ
صرختُ ــ كنتُ خارجاً من رَحِم المناءةْ
صرختُ ، أطلبُ البراءةْ
كَيْنُونَتى : مشنقتى
وحَبْلىَ السُّرىُّ :
حَبْلُها
المقطوعْ !

سفر الخروج
(أغنية الكعكة الحجرية)

(الاصحاح الأول)

أيها الواقفون على حافة المذبحة
أشهروا الأسلحة !
سقط الموت ؛ وانفرط القلب كالمسبحة
والدم انساب فوق الوشاح !
المنازل أضرحة ،
والزنازن أضرحة ،
والمدى .. أضرحة
فارفعوا الأسلحة
واتبعونى !
أنا ندم الغد والبارحة
رايتى : عظمتان .. وجمجمة ،

وشعاري : الصباح !

(الاصحاح الثالى)

دَقَّتْ الساعةُ المُتْعَبَة
رفعت أُمُّة الطيِّبة
عَيْنَيها ..
(دَفَعَتْهُ كُعُوبُ البنادقِ فى المركبة !)
... ...
دقت الساعةُ المُتعبة
نهضتْ ؛ نَسَّقَتْ مكتبه ..
(صفعته يَدٌ ..
ـــ أدْخلتْهُ يَدُ اللهِ فى التجربة ـــ)
... ...
دقت الساعةُ المتعبة
جلست أُمُّه ؛ رَتَقَتْ جَوْرَبَهْ ..
(وَخَزَتْهُ عيونُ المُحَقِّقِ ..

حتى تُفَجِّرَ من جلده الدمُ والأجوبة !)
... ...
دقت الساعةُ المتعبةْ !
دقت الساعة المتعبةْ !

(الاصحاح الثالث)

عندما تهبطين على ساحةِ القوم ؛ لا تَبْدئى بالسلامْ
فهمُ الآنَ يَقْتَسِمُون صغارَكِ فوق صِحَاف الطعامْ
بعد أن أشعلوا النارَ فى العُشّ ..
والقَشّ ..
والسنبلة .
وغداً يَذْبحونك .. بحثاً عن الكنزِ فى الحَوْصَلَة !
وغداً تغْتَدى مُدُنُ الألفِ عامْ .
مدناً .. للخيامْ
مدناً ترتقى دَرَجَ المقصلةْ !

(الاصحاح الرابع)

دقت الساعةُ القاسيةْ

وقفوا فى ميادينها الجَهْمَةِ الخاوية
واستداروا على دَرَجاتِ النُصُبْ
شجراً من لَهَبْ
تعصف الريحُ بين وريقاته الغضة الدانية
فَيَئِنُّ : « بلادى .. بلادى »
(بلادى البعيدة !)

... ...

دقت الساعةُ القاسيةْ
« انظروا » ؛ هتفتْ غانيةْ
تتمطّى بسيارة الرقم الجُمْرُكىّ ؛
وتمتمت الثانية :
سوف ينصرفون إذا البَرْدُ حَلَّ .. وَرَانَ التعب

... ...

دقت الساعةُ القاسيةْ
كان مذياعُ مقهى يذيع أحاديثه الباليةْ
عن دُعاةِ الشغبْ
وهُم يستديرونَ ؛
يشتعلون ــ على الكعكةِ الحَجَريةِ ــ حولَ النُصُبْ
شمعدانَ غَضَبْ

يتوهّجُ في الليلِ ..
والصوتُ يكتسحُ العتمةُ الباقيةْ
يتغنّي لليلةِ ميلادِ مصر الجديدةْ !

(الاصحاح الخامس)

أذكريني !
فقد لَوَّثتني العناوينُ في الصُّحُفِ الخائنةْ !
لَوَّ ثتني .. لأنّيَ منذ الهزيمةِ لا لونَ لي
(غير لونِ الضياعْ)
قبلَها ؛ كنتُ أقرأُ في صفحةِ الرملِ
(والرملُ أصبح كالعُمْلةِ الصعبةِ ،
الرملُ أصبح أبسطَةَ .. تحت أقدام جيش الدفاع)
فاذكريني ؛ كما تذكرين المُهَرَّبَ .. والمطربَ العاطفيَّ ..
وكَابَ العقيدِ .. وزينةِ رأسِ السنةْ .
أذكريني إذا نسيتْني شُهُودُ العيانِ
ومَضبَطَةُ البرلمانِ
وقائمةُ التُهم المُعْلَنَةْ
والوداعَ !

الوداعْ !

(الاصحاح السادس)

دقت الساعةُ الخامسةْ
ظَهَرَ الجندُ دائرةً من دُروعٍ وخُوذاتِ حربْ
ها هُم الآنَ يقتربون رويداً .. رويداً ..
يجيئون من كُلِّ صَوْبْ
والمُغَنُّون — فى الكعكةِ الحجريَّةِ — ينقبضُون
وينْفرجُونَ
كنبضةِ قلْبْ !

يُشعلون الحناجرَ ،
يستدفئون من البرد والظلمةِ القارسة
يرفعُون الأناشيد فى أوجه الحرس المقتربْ

يشبكون أياديهمُ الغَضَّة البائسة
لتصيرَ سياجاً يَصُدُّ الرصاصَ !
الرصاص ..
الرصاص ..
وآه ..

« نحن فداؤ .... »
وتسقط حنجرة مُخْرَسَة
معها يسقطُ اسمكِ — يا مصرُ — فى الأرضِ
لا يتبقّى سوى الجسدِ المتهشّم والصرخاتِ
على الساحةِ الدامسةْ !
دقت الساعة الخامسةْ
... ...
دقت الخامسةْ
... ...
دقت الخامسةْ
... ...
وتفرّق ماؤكَ — يانهرُ — حين بَلَغْتَ المَصَبْ !

• • •

المنازلُ أضرحةٌ ، والزنازنُ
أضرحةٌ ، والمدى أضرحه
فارفعوا الأسلحة !
ارفعوا
الأسلحة

سرحان لا يتسلم مفاتيح القدس
(بكائيات)

(الاصحاح الأول)

عائدون ؛ وأصغرُ إخوتهم ذو العيون الحزينة
يتقلّب فى الجُبِّ ،
أجملُ إخوتهم .. لا يعودْ !
وعجوزٌ هى القدسُ (يشتعل الرأسُ شيبا)
تشم القميص . فتبيضُّ أعينها بالبكاء ،
ولا تخلع الثوبَ حتى يجيءَ لها نبأٌ عن فتاها البعيد
أرضُ كنعان ــ إن لم تكن أنت فيها ــ مراعٍ من الشوكِ
يُورثها الله من شاءَ من أممٍ ،
فالذى يحرس الأرض ليس الصيارف
إن الذى يحرس الأرض ربُّ الجنود
آه من فى غدٍ سوف يرفع هامتَهُ
غير من طأطأوا حين أزَّ الرصاصُ ؟

ومن سوف يخطب — فى ساحة الشهداءِ —
سوى الجبناءِ ؟
ومن سوف يُغوى الأراملَ إلا الذى
سيؤول اليه ﺳ ﺮاجُ المدينةْ !!؟ .

(الاصحاح الثانى)

أرشق فى الحائطِ حد المطواه
والموت يهبُّ من الصحف الملقاة
اتجزأ فى المرآة
يصفعنى وجهى المتَخفىّ تحت قناع النفط
« من يجرؤُ أن يضع الجرَسَ الأوّلَ فىْ عنق القط ؟ »

(الاصحاح الثالث)

منظرٌ جانبىٌ لفيروز
(وهى تطلُّ على البحر من شرفة الفجرِ)
لبنان فوق الخريطةْ : .
منظر جانبىٌ لفيروزِ ،
والبندقيةُ تدخلُ كلَّ بيوت (الجنوبْ)

مطرُ النار يهطلَ ، يثقبُ قلباً .. فقلباً
ويترِكُ فوق الخريطةِ ثقباً .. فثقباً
وفيروزُ فى أُغنياتِ الرعاةِ البسيطهْ
تستعيد المراثى لمن سقطوا فى الحروب
تستعيد الجنوب !

(الاصحاح الرابع)

البسمةُ حلمْ
والشمسُ هى الدينارُ الزائفْ
فى طَبَقِ اليومْ
(من يمسحُ عنى عَرَقى فى هذا اليوم الصائفْ)
والظلُّ الخائفْ
يتَمَدَّدُ من تحتى ؛
يفصل بين الأرضِ .. وبينى !
وتضاءلتُ كحرفٍ ماتَ بأرض الخوف
(حاءْ .. باءْ)
(حاءٌ .. راءٌ .. باءٌ .. هاءْ)
الحرفُ : السيفْ
مازلتُ أرودُ بلادَ اللّونِ الداكنْ

ابحث عنه بين الاحياءِ الموتى والموتى الاحياءْ
حتى يَرتدَّ النبضُ إلى القلبِ الساكنْ
لكنْ .. !!

(الاصحاح الخامس)

منظرٌ جانبيٌ لعمَّانَ عامَ البكاءْ
والحوائطُ مرشوشةٌ ببقايا دمٍ لعقته الكلابْ
ونهودُ الصبايا مصابيح مطفأة فوق أعمدة الكهرباءْ
منظرٌ جانبيٌ لعمَّانْ :
والحرسُ الملكيُّ يفتّشُ ثوبَ الخليفة
وهو يسير إلى « إيلياءْ »
وتغيبُ البيوتُ وراء الدخانْ
وتغيبُ عيونُ الضحايا وراء النجوم الصغيرة
في العلمِ الأجنبيِّ ،
ويعلو وراءَ نوافذ « بسمانَ » عزفُ البيانْ

(الاصحاح السادس)

إشترى في المساءْ

قهوةً ، وشطيرة
واشترى خيمتين . وغَدَّارةً ، وذخيرة
وزجاجةَ ماءْ

... ...

عندما أطلقَ النارَ كانتْ يدُ القدس فوق الزنادْ
(ويدُ الله تخلع عن جسدِ القدسِ ثوبَ الحداد)
ليس من أجل أن يتفجَّرَ نفطُ الجزيرة
ليس من أجل أن يتفاوضَ من يتفاوضُ
من حول مائدةٍ مستديرة
ليس من أجلِ أن يأكلَ السادةُ الكسْتناءْ .

(الاصحاح السابع)

ليغفر الرصاصُ من ذنبكَ ما تأخَّرْ
ليغفر الرصاصُ .. ياكيسنْجَرْ

(الاصحاح الأول)

القطاراتُ ترحل فوق قضيبين : ما كانَ ــ ماسيكونْ
والسماءُ رمادٌ ، به صنع الموتُ قهوتَهُ ،
ثم ذَرّاه كي تتنشّقَه الكائناتُ
فينسلّ بين الشرايين والأفئدةْ .
كلُّ شيءٍ ــ خلال الزجاج ــ يَفِرُّ :
رذاذُ الغبارِ على بقعة الضوءِ ،
أغنيةُ الريحِ ،
قنطرةُ النهرِ ،
سربُ العصافيرِ والأعمدةْ .
كلُّ شيءٍ يَفِرُّ ،
فلا الماءُ تمسكه اليدُ ،
والحُلْمُ لا يتبقّى على شرفات العيونْ .
... ...

والقطاراتُ ترحلُ ، والراحلونْ
يَصِلُونَ .. ولايَصلُونْ !

(الاصحاح الثانى)

سنترال :
أعطِ للفتياتِ
(اللواتى يَتَمْنَ إلى جانب الآلةِ الباردةِ
شارداتِ الخيالْ)
رقمى — رقمَ الموتِ — حتى أجىءَ إلى العُرْسِ
ذى الليلةِ الواحدةْ !
أعطهِ للرجالْ ..
عندما يلثُمُون حبيباتهم فى الصباحِ ،
ويرتحلونَ إلى جَبَهاتِ القتالْ !

(الاصحاح الثالث)

الشهورُ زُهُورٌ على حافَةِ القلبِ تنمو
وتُحرِقها الشمسُ ذاتُ العيون الشتائيَّة المطفأةْ
زهرةٌ فى إناءْ
تتوهَّجُ فى أوَّلِ الحبِّ بينى وبينكِ

تصبح طفلاً .. وأرجوحةً .. وامرأةً .
زهرة فى الرداء
تَتَفَتَّحُ أوراقُها فى حياءْ
عندما نَتَخَاصَرُ فى المشية الهادئة .
زهرة من غناء
تتورَّدُ فوق كمنجاتِ صوتكِ
حين تفاجئكِ القبلةُ الدافئة
زهرةٌ من بكاء
تتجمَّدُ فوق شجيرة عينيكِ فى لحظاتِ الشجار الصغيرةِ
أشواكُها : الحزنُ والكبرياءْ .
... ...
زهرةٌ فوق قبرٍ صغيرْ
تنحنى ؛ وأنا أتحاشى التطلعَ نحوكِ ..
فى لحظات الوداع الأخير
تتعرَّى ؛ وتلتفُّ بالدمع فى كلِّ ليلٍ إذا الصمتُ جاءْ
لم يَعُدْ غيرُها من زهور المساء
هذه الزهرةُ ـــ اللؤلؤةْ !

(الاصحاح الرابع)

تحبل الفتياتْ
فى زيارات أعمامهنَّ إلى العائلةْ
ثم يجْهضهنُّ الزحامُ على سُلَّم « الحافِلةْ »
وترام الضجيج !

• • •

تذهبُ السيداتْ
ليُعالجْنَ أبنائهنَّ فيُؤْمِنَّ بالوحدة الشاملة !
ويُجِدْنَ الهوى بلسان « الخليج » ؟

• • •

يا أبانا الذى صار فى الصيدليّات والعُلبِ العازلة
نَجِّنَا من يد « القَابِلة »
نَجِّنَا . حين نَقْضم ــ فى جنَّة البؤسِ ــ تفَّاحَةَ العرباتْ
وثيابِ الخروجْ !!

(الاصحاح الخامس)

تصرخين .. وتخترقين صفوفَ الجنودْ
نتعانق فى اللحظاتِ الأخيرةِ ،
فى الدرجاتِ الأخيرةِ .. من سلّم المقصلةْ .
أتحسّسُ وجهكِ !
(هل أنت طفلتىَ المستحيلةُ أم أمّىَ الأرملةْ ؟)
أتحسسُ وجهكِ !
(لم أكُ أعمى ..
ولكنهم أرفقُوا مقلتى ويدى بَملَفِّ اعترافى
لتنظره السلُطاتُ ..
فتعرفَ أنّىَ راجعتُه كلمةً .. كلمةً ..
ثم وَقّعْتُه بيدى ..
ــ ربما دسَّ هذا المحقّقُ لى جملةً تنتهى بى إلى الموتِ !
لكنهم وعدوا أن يعيدوا إلىَّ يدىَّ وعينىَّ بعد
انتهاء المحاكمة العادلةْ !)
زمن الموتِ لا ينتهى يا ابنتى الثاكلةْ
وأنا لستُ أوّلَ من نبّأ الناسَ عن زمن الزلزلةْ
وأنا لستُ أول من قال فى السوقِ :
ان الحمامةَ ــ فى العُشِّ ــ تحتضن القنبلةْ !
قبّلينى ؛ لأنقلَ سرّى إلى شفتيكِ ،

لأنقل شوق الوحيد
لك ، للسنبلة
للزهور التى تَتَبْرعمُ فى السنة المقبلة
قبّلينى .. ولا تدمعى !
سُحُبُ الدمعِ تحجبنى عن عيونك ..
فى هذه اللحظة المثقلة
كثُرَتْ بيننا السُتُرُ الفاصلة
لا تُضيفى إليها ستاراً جديد !

(الاصحاح السادس)

كان يجلسُ فى هذه الزاويةْ .
كان يكتب ، والمرأة العاريةْ
تتجوّل بين الموائد ؛ تعرض فتنتَها بالثمن .
عندما سألته عن الحربِ ، قال لها ..
لا تخافى على الثروة الغاليةْ
فعَدوُّ الوطنْ
مثلنا يختتنْ
مثلنا .. يعشقُ السِّلَعَ الأجنبيّةَ ،

يكره لحمَ الخنازيرِ ،
يدفعُ للبندقيّةِ .. والغانيةْ .
.. فبكتْ !
... ...
كان يجلس فى هذه الزاويةْ .
عندما مرَّت المرأةُ العاريةْ
ودعاها ؛ فقالت له إنها لن تُطيل القُعودْ
فهى منذ الصباحِ تُفَتِّشُ مستشفياتِ الجنودْ
عن أخيها المحاصرِ فى الضفَّة الثانيةْ
(عادت الأرضُ .. لكنَّه لا يعودْ !)
وحكَتْ كيف تحتملُ العبءَ طيلة غربته القاسيةْ
وحكت كيف تلبس — حين يجىءُ — ملابسها الضافية
وأرَتْهُ له صورةً بين أطفاله .. ذاتَ عيد
.. وبكت !!

(الاصحاح السابع)

أشعر الآن أنى وحيدٌ ؛
وأن المدينةَ فى الليلِ ..

(أشباحَها وبناياتها الشاهقة)
سفنٌ غارقة
نهبتْها قراصنةُ الموتِ ثم رمتْها إلى القاعِ منذ سنينْ .
أسند الرأسَ ربَّانُها فوق حافتها ،
وزجاجةُ خمرٍ محطمةٌ تحت أقدامِهِ
وبقايا وسام ثمين .
وتشبُّث بحارةُ الأمس فيها بأعمدة الصمتِ فى الأروقة
يتسلَّل من بين أسمالهم سمكُ الذكريات الحزينْ .
وخناجرُ صامتةٌ ..
وطحالبُ نابتةٌ ..
وسلالٌ من القطط النافقة .
ليس ما ينبض الآن بالروحِ فى ذلك العالم المستكينْ
غير ما ينشرُ الموجُ من عَلَمٍ .. كان فى هبَّة الريح
والآن يفرك كفَّيْه فى هذه الرقعةِ الضيِّقة
سيظلُّ على السارياتِ الكسيرةِ يخفقُ ..
حتى يذوبَ .. رويداً .. رويداً ..
ويصدأ فيه الحنينْ
دون أن يلثمَ الريح ثانيةً ، أو يرى الأ‍رض ،
أو يتنهَّد .. من همسها المحرقة !

(الاصحاح الثامن)

آه .. سيدتى المسبلةْ
آه ..: سيدةَ الصمت واللفتات الودودْ
لم يكن داخلَ الشقّة المقفلَة
غير قطٍ وحيدْ .
حين عادت من السوق تحمل سلّتها المثقلة
عرفت أن ساعى البريدْ
مَرَّ ..
(فى فتحةِ البابِ كان الخطابُ
طريحاً ..
ككتابِ الشهيدْ !)
قفز القطُّ فى الولوله
قفزت من شبابيك جيرانها الأسئلة
... ...
آه .. سيدةَ الصمتِ والكلمات الشرُّودْ
آه .. أيتها الأرملة !

(الاصحاح التاسع)

دائما .. حين أمشي ؛ أرى السُّتْرةَ القرمزيّة
بين الزحام .
وأرى شعركِ المتهدّل فوق الكتف .
وأرى وجهك المتبدّل .. فوق مرايا الحوانيتِ ،
فى الصُّور الجانبيّةِ ،
فى نظرات البنات الوحيداتِ ،
فى لمعان خدود المحبين عند حلول الظلامْ .
دائماً أتحسَّسُ ملمسَ كفِّك فى كلّ كفّ .
المقاهى التى وهبتْنا الشرابَ ،
الزوايا التى لا يرانا بها الناسُ ،
تلك الليالى التى كان شعركِ يبتلُّ فيها ..
فتختبئين بصدرى من المطرِ العصبى
الهدايا التى نتشاجر من أجلها ،
حلقاتُ الدخان التى تتجَمَّعُ فى لحظات الخصام
دائما أنت فى المنتصف !
أنت بينى وبين كتابى ..
وبينى وبين فراشى ..
وبينى وبين هدوئى ..
وبينى وبين الكلام .

ذكرياتُك سجنى ، وصوتُك يجلدنى
ودمى قطرةٌ ـــ بين عينيكِ ـــ ليست تجفُّ !
فامنحينى السلام !
امنحينى السلام !.

(الاصحاح العاشر)

الشوارعُ فى آخر الليل .. آه
أراملُ متشحاتٌ يُنَهْنِهْنَ فى عتباتِ القبورِ ـــ البيوتْ .
قطرةً .. قطرةً ، تتساقط أدمُعُهنَّ مصابيحَ ذابلةً
تتشبث فى وجنةِ الليل ثم .. تموتْ !
... ...
الشوارع فى آخر الليل .. آه
خيوطٌ من العنكبوتْ .
والمصابيح ـــ تلك الفراشاتُ ـــ عالقةٌ فى مخالبها
تتلوّى .. فتعصرها ، ثم تنحَلُ شيئاً . فشيئاً
فتمتصُ من دمها قطرةً .. قطرةً ؛
فالمصابيحُ قوتْ !
.. ..
الشوارع فى آخر الليل .. آه

أفاعٍ تنام على راحةِ القمر الأبديِّ الصَّموتْ .
لَمَعَانُ الجلودِ المفضَّضةِ المستطيلة يغلو مصابيحَ
مسمومةَ الضوءِ ، يغفو بداخلها الموتُ ،
حتى إذا غرب القمرُ : انطفأتْ
وغَلى فى شرايينها السمُّ
تنزفُه قطرةً .. قطرة ؛ فى السكونِ المميتْ !
... ...
... ...
وأنا كنتُ بين الشوارعِ وحدى !
وبين المصابيح وحدى !
أتصبَّب بالحزن بين قميصى وجلْدى
قطرةً .. قطرةً ؛ كان حبى يموتْ
وأنا خارجٌ من فراديسهِ ..
دون وَرْقَةِ توتْ !!

٥

المزمور الأول

أعشق أسكندريةَ ،
واسكندريةُ تعشقَ رائحةَ البحرِ ،
والبحرُ يعشق فاتنةً فى الضفافِ البعيدةْ !

• • •

كلُّ أمسيةٍ ؛ تتسلل من جانبى
تتجرُّد من كلِّ أثوابها
وتحلُّ غدائرَها
ثم تخرج عاريةً فى الشوارع تحت المطرْ !
فاذا اقتربت من سريرِ التنهّدِ والزُّرْقةِ
انطرحتْ فى مُلاءاته الرغويِّةِ ؛
وانفتحت .. تنتظر !

ممدودةً ــ كالنداء
ومشدودةً ــ كالوترْ
... ...
وتظلُّ .. وحيدةً !!

المزمور الثانـــى

قلتُ لها فى الليلة الماطرةْ :
البحرُ عنكبوتْ
وأنتِ ــ فى شراكه ــ فراشةٌ تموتْ
وانتفضتْ كالقطة النافرةْ
وانتصبت فى خفقان الريح والأمواجْ
(ثديانِ من زجاجْ
وجسدٌ من عاجْ)
وانفلتتْ مبحرةً فى رحلةِ المجهولِ ، فوق الزَّبَد المُهْتاجْ
ناديتُ .. ما ردَّتْ !
صرختُ .. ما ارتدَّتْ !
وظلَّ صوتى يتلاشى .. فى تلاشيها ..

وراءَ الموجة الكاسرة)

... ...

(خاسرةٌ ، خاسرةْ
إن تنظرى فى عَيْنَىْ الغريمِ الساحرة
أو ترفعى عينيكِ نحو الماسةِ التى تَزينُ التاج !)

المزمور الثالث

لفظَ البحرُ أعضاءَها فى صباحٍ أليم
فرأيتُ الكلومْ
ورأيتُ أظافرَها الدمويَّة
تتلوَّى على خصلةٍ « ذهبيَّة »
فحَشَوْتُ جراحاتها بالرمالِ ،
وأدفأتُها بنبيذ الكرومْ ..

... ...

وتعيشُ معى الآنَ !
ما بيننا حائطٌ من وجوم
بيننا نسماتُ « الغريم »
كلَّ أمسيةٍ ..

تتسلل فى ساعة المَد ، فى الساعة القمرية
تستريح على صخرةِ الأبدية
تتسمَّع سخريةَ الموج من تحت أقدامها
وصفير البواخر .. راحلة فى السَّواد الحميمْ
تتصاعدُ من شفتيها المُملَّحَتَيْن رياحُ السَّمومْ
تتساقط أدمعها فى سهومْ
والنجومُ
(الغريقة فى القاعِ)
تصعدُ .. واحدة .. بعد أخرى ..
فتلقطها
وتَعُدُّ النجومْ
فى انتظار الحبيب القديم !

المزمور الرابع
(ترنيمة لشهر يناير)

فجأةً .. يَجْفُلُ خطوُ القلبِ ،
تهتزُّ الكُرَيَاتُ الرصاصيَّةُ فى سلَّتِهِ

(هل إصبعُ الوحدةِ أم اصبعُك المصبوغ بالحنّاءِ ؟)
فى الخارج أسوارٌ وأمطارٌ ،
غلافُ الليل ينشقُّ عن الرعدِ
غلافُ القلب ينشقُّ عن الوجدِ
مساحاتٌ من الضوءِ الرمادىّ
أنا النافذةُ المغلقةُ السوداءُ
والتفاحةُ الحمراءُ
والأسماءُ
(إسمى كان مكتوباً على طرْف قميصى
قبل أن يَعْلَقَ فى سلكِ الحدودِ الشائكِ !)
النهرُ ضميرى (ولعينيكِ انسيابُ النهرِ)
ما أقسى انتظارى ! ..
وفؤادى ساعةٌ رمليّةٌ صفراءُ
يَهْوى الرملُ فى أعماقها شيئاً فشيئاً
ربما للرملِ طعمُ الملح أحياناً .. وطعم الانتظارْ !!

(المزمور الخامس)

كان فستانُكِ فى الصيفِ من الكتّانِ ،

وَالزهره فى صدركِ بيضاء ،
ولكن الشتاءَ الآن يكسوكِ بلون السل والنرجس
(حتى ورقةُ التُّوتِ على فخذيك .. صفراءُ !)
هل الماءُ يغيضُ الآنَ فى البئرِ ؟
هل الماءُ يفيضُ الآن فى البئرِ ؟
أماءٌ ؟ أمْ دَمٌ ؟
(هذا الندى القاتلُ ذو الوجهين)
كان النائُ يمتدُّ من الضفَّةِ للضفَّةِ
من صدرك إلى صدركِ
كان النائُ ممتدّاً
ولونُ الليلِ بين البرتقالى ــ الرَّماديٌّ ــ السَّماويٌّ
وفى شعركِ غاباتٌ من الوحشةِ والصمتِ ؛
هوى نجمٌ ؛ وفى الثانيةِ التاليةِ اصطكَّتْ يدى
فى الشبحِ العابرِ
(هل كانت يدى فى يدكِ اليسرى ؟)
وفى الثانيةِ الثانيةِ اصطكَّتْ يدى فى كلمة السجن
على وجه الجدار !!

المزمور السادس

نحنُ صوتانِ ..
(إذن فالصوتُ قد أصبح صوتينِ !؟)
تَنَزَّهْنا على خطِّ استواء الموتِ ،
لَمْلمنا البنفسجْ
وتسلقْنا شعاعَ الزهوِ ، خَلْخَلنا مزاليجَ البيوتْ
وقَدَحْنا حَجَرَ الحُبِّ ؛ جلسنا نتوهجْ
فاحلفي باسمى ، وباسم العنكبوتْ
باسم نقشِ الذكرياتِ المُتعرّجْ
وركامِ الذكرياتِ السرجْ
انها ورقةُ توتْ
سقَطَتْ عن عورةِ الصيفِ ،
وظلتْ تتدحرجْ
فوقفنا نتفَرَّجْ
(دون أن نَطْرُف) حتى سقطت في النهرِ ..
وارتدَّ السكوتْ !

المزمور السابع

جاء الاناسُ الميتونَ ، يحملونَ
كفانَهم ؛ أطيارُهم ليست إلى أعناقهم ؛

يستغفرون :
« ماذا أتى بنا هنا ؟! »
أنت بكم امرأةٌ خاطئةٌ
نهودُها دافئةٌ
ولحمُها مُعَطَّرُ النَّكْهَةْ
قد استدارت فى فراشها برهة
عانقت الجدارَ ، قَبَّلت وَجْهَه
« يا أيُّها الجدارُ .. لا تَبُحْ بما ترى
ولا تُقُلْ عن الذين يولدونْ
وغمغم الجدارُ :
يا صديقتى الطفلة
ماتَ الذين يسألون !

.. ..

ومَرَّت الليلة
فربما كان أباكُم الجدار ،
ربما يكون !

المزمور الثامن

(شجوية)

لماذا يتابعنى أينما سرتُ صوتُ الكَمَانْ ؟
أسافرُ فى القاطراتِ العتيقةِ ،
(كى أتحدَّث للغرباء المُسِنِّينْ)
أرفع صوتى ليطْغى على ضجَّة العجلاتِ
وأغفو على نبضاتِ القطارِ الحديديَّةِ القلبِ
(تهدر مثل الطواحينْ)
لكنها بغتةً .. تتباعدُ شيئاً فشيئا
ويصحو نداءُ الكمان !

• • •

أسيرُ مع الناسِ ، فى المهرجانات :
أصغى لبوقِ الجنودِ النُّحاسىّ
يملأُ حلقى غبارُ النشيدِ الحماسىّ
لكننى فجأةً .. لا أرى !
تتلاشى الصفوفُ أمامى
وينسربُ الصوتُ مبتعداً
ورويداً .. رويداً يعود إلى القلب صوتُ الكمانْ

لماذا إذا ما تهيَّأْتُ للنوم يأتى الكَمان ..
فأصغى له آتياً من مكان بعيد
فتصمت همهمةُ الريح خلف الشبابيكِ ،
نبضُ الوسادةِ فى أذنى
تتراجعُ دقاتُ قلبى ،
وأرحل فى مدن لم أَزُرْها
شوارعُها فضّةٌ .
وبناياتُها من خيوطِ الأشعَّة .
ألقى التى واعَدَتْنى على ضفَّةِ النهرِ واقفة !
وعلى كتفيها يحطُّ اليمامُ الغريبُ
ومن راحتيها يغطّ الحنانْ !
أحبُّك ، صارَ الكمانُ كعوبَ بنادق
وصارَ يمامُ الحدائقْ .
قنابلَ تسقط فى كلِّ آنْ
... ...
وغَابَ الكمانْ !

من أوراق أبو نواس

(الورقة الأولى)

« ملكٌ أم كتابةٌ ؟ »

صاحَ بى صاحبى ؛ وهو يُلْقى بدرْهمِهِ فى الهواءْ

ثم يَلْقَفُهُ ..

(خَارِجيْن من الدرس كُنّا .. وحبْرُ الطفْولةِ فوق الرد

والعصافيرُ تمرقُ عبرَ البيوتِ ،

وتهبطُ فوق النخيلِ البعيدْ !)

... ...

« ملكٌ أم كتابة ؟ »

صاح بى .. فانتبهتُ ، ورفّتْ ذُبابه

حولَ عينيْن لامعتيْن ..

فقلتُ : « الكتابةْ »

... فَتَحَ اليدَ مبتسما ؛ كان وجهُ المليكِ السعيدْ

باسماً فى مهابة !

• • •

« ملكٌ أم كتابة ؟ »
صحتُ فيه بلوعة ..
فرفرفَ فى مقلتيه الصبا والنجابة
وأجابَ : « الملكْ »
دون أن يتلعثمَ .. أو يرتبكْ
وفتحتُ يدى ..
كان نقشُ الكتابة
بارزاً فى صلابة !
دارت الأرضُ دورتها ..
حمَلَتْنا الشواديفُ من هدأةِ النهرِ
ألقتْ بنا فى جداولِ أرض الغرابة
نتفرّق بين حقولِ الأسى .. وحقولِ الصبابة .
قطرتيْن ؛ التقينا على سُلَّم القصرِ ..
ذاتَ مساءٍ وحيدْ
كنتُ فيه : نديمَ الرشيد

بينما صاحبى .. يتولى الحجابة !!

(الورقة الثانية)

من يملكُ العملةَ يُمسكُ بالوجهيْن
والفقراءُ بيْنَ بيْنْ !

(الورقة الثالثة)

نائماً كنتُ جانبَه ؛ وسمعتُ الحرسْ
يوقظون أبى !
ـــ خارجىٌّ
ـــ أنا .. !
ـــ مارقٌ
ـــ من ؟ أنا !
صرخَ الطفلُ فى صدر أمّى
(وأمّىَ محلولةُ الشعر واقفةٌ فى ملابسها المنزلية)
ـــ إخرسوا
واختبأنا وراءَ الجدارِ

— اخرسوا
وتسللَ فى الحلقِ خيطٌ من الدمِ.
كان أبى يمسكُ الجرحَ ،
يمسكُ قامته .. ومَهَابَتَه العائليَّة !
— يا أبى
— اخرسوا
وتواريت فى ثوب أمّىَ ، والطفلُ فى صدرها ماانْبسْ
ومضوا بأبى تاركين لنا اليتم متشحاً بالخرس

(الورقة الرابعة)

أيها الشعرُ .. يا أيها الفرح المُختَلَسْ
... ...
كل ما كنتُ أكتبُ فى هذه الصفحة الوَرَقيَّة
صادرته العسسْ
... ...

(الورقة الخامسة)

... وأمّى خادمةٌ فارسيّه
يتناقلُ سادتُها قهوةَ الجنسِ وهى تدير الحطبْ
يتبادلُ سادتُها النظرات لأردافها ..
عندما تنحنى لتُضيءَ اللهبْ
يتندّر سادتُها الطيِّبون بلهجتها الأعجميّة !

• • •

نائماً كنت جانبها ، ورأيتُ ملاكَ القُدُسْ
ينحنى ، ويُرَبِّتَ وجنتَها
وتراخى الذراعانِ عنى قليلاً
وسارت بقلبى قُشَعْريرةُ الصمتِ
ــ أمّى ؛ وعادَ لى الصوتُ
ــ أمّى ؛ وجاوبنى الموتُ
ــ أمّى ؛ وعانقتها .. وبكيت
وغامَ بى الدمعُ حتى احتَبَسْ !

• • •

(الورقة السادسة)

لا تسألنى إن كانَ القُرآنْ
مخلوقاً أو أزَلِىّْ
بل سَلْنى إن كان السلطانْ
لصاً .. أو نصفَ نبىّْ

(الورقة السابعة)

كنتُ فى كربلاءْ
قال لى الشيخُ أن الحسينْ
ماتَ من أجل جرعةِ ماءْ
... ...
وتساءلتُ كيف السيوفُ استباحت بنى الأكرمينْ
فأجابَ الذى بصَّرته السماءْ
إنه الذهبُ المتلألىءُ فى كلّ عينْ
... ...
إن تكن كلماتُ الحسينْ
وسيوفُ الحسينْ

وجلالُ الحسينْ
سَقَطَتْ دون أن تُنقذ الحقَّ من ذهبِ الأمراءْ
أفتقدر أن تنقذَ الحقَّ ثرثرةُ الشعراء
والفراتُ لسانٌ من الدم لايجدُ الشفتينْ ؟!

• • •

ماتَ من أجل جرعة ماءْ ·
فاسقني ياغلام صباح مساء
اسقني ياغلام ..
علني بالمدام ..
أتناسى الدماء !

رسوم في بهو عربي

(١)

اللوحةُ الأولى على الجدار :
ليلى « الدمشقيَّة »
من شرفةِ « الحمراءِ » ترنو لمغيبِ الشمسِ ،
ترنو للخيوطِ البُرتقاليَّة
وكرمةٌ أندلسيَّةٌ ، وفسقيَّة
... ...
وطبقاتُ الصمتِ والغبار !
النقش
(مولاى ، لا غالبَ إلا الله !)

(٢)

اللوحةُ الأُخرى .. بلا إطارْ :
للمسجدِ الأقصى.. (وكانَ قبلَ أن يحترقَ الرُّواقْ)
وقبةِ الصخرةِ ، والبُراقْ
وآيةٍ تآكلتْ حروفُها الصغار !
نقش
(مولاىَ ، لا غالبَ إلا .. النّار !)

(٣)

اللوحةُ الداميةُ الخطوطِ ، والواهيةُ الخيوطْ :
لعاشق محترقِ الأجفانْ
كان اسمُه « سرْحان »
يمسكُ بندقيةً .. على شفَا السُّقوطْ
نقش
(بينى وبين الناسِ تلكَ « الشعْره »
لكن من يقبضُ فوقَ الثورةْ
يقبضُ فوق الجمرة !)

(٤)

اللوحةُ الأخيرة :
خريطةٌ مبتورةُ الأجزاء
كان اسمُها « سيناء »
ولطخةٌ سوداءْ
تملأُ كل الصورة

نقش
(الناسُ سواسيةٌ — فى الذلِّ — كأسنانِ المشْطْ
ينكسرون — كأسنان المشطْ
فى لحيةِ شيخِ النفطْ !)

• • •

كتابة فى دفتر الاستقبال :
لا تسألى النيلَ أنْ يُعطى وأن يَلِدَا
لا تسألى .. أبدا
إنّى لأفتحُ عينى (حين أفتحُها !)
على كثيرٍ .. ولكنْ لاأرى أحدا !!

« خـــاتمـة »

آه .. من يُوقفُ فى رأسى الطواحينَ ؟
ومن ينزعُ من قلبى السكاكينَ ؟
ومن يقتلُ أطفالى المساكينَ ..
لئلاَّ يكبروا فى الشُقَقِ المفروشةِ الحمراء
خدّامينَ ..
مأبونينَ ..
قوّادينَ ..
من يقتلُ أطفالى المساكينَ ؟
لكيلا يصبحوا — فى الغدِ — شحّاذينَ ..
يستجدون أصحابَ الدكاكينِ
وأبوابَ المرابينَ

يبيعون لسياراتِ أصحابِ الملايينِ .. الرياحينَ
وفى « المترو » يبيعون الدبابيسَ و« بس »
وينسلّون فى الليل يبيعون « الجَعَارينَ »
لأفواج الغزاة السائحينْ !

... ...

هذه الأرضُ التى ما وَعَدَ اللهُ بها ..
مَنْ خرجوا من صُلْبها ..
وانغرسوا فى تربْها ..
وانطرحوا فى حُبِّها ..
مُسْتَشهَدين !

... ...

... ...

فادخلوها « بسلامٍ » آمنين !!

أقوالٌ جديدة
عن
حرب البسوس

مقتل كليب
« الوصايا العشر »

.. فنظر « كليب » حواليه وتحسر ، وذرف دمعةً وتعبّر ، ورأى عبداً واقفاً فقال له : أريد منك ياعبد الخير ، قبل أن تسلبني ، أن تسحبني إلى هذه البلاطة القريبة من هذا الغدير ، لأكتب وصيتي إلى أخى الأمير سالم الزير ، فأوصيه بأولادى وفلذة كبدى ..

فسحبه العبد إلى قرب البلاطة ، والرمح غارس فى ظهره ، والدم يقطر من جنبه .. فغمس « كليب » إصبعه فى الدم ، وخطَّ على البلاطة وأنشأ يقول ..

(١)

لاتصالحْ !
.. ولو منحوكَ الذهَبْ
أترى حين أفقأُ عينيكَ ،
ثم أثبتُ جوهرتين مكانهما ..
هل ترىَ .. ؟
هى أشياءُ لاتشترىْ .. :
ذكرياتُ الطفولةِ بين أخيكَ وبينكَ ،
حسُّكُما ـ فجأةً ـ بالرجولةِ ،
هذا الحياءُ الذى يكبتُ الشوقَ .. حين تعانقُهُ ،
الصمتُ ـ مبتسمينْ ـ لتأنيب أمكما ..

وكأنكمـــا
ما تزالانِ طفلَيْــنِ !
تلك الطمأنينـةُ الأبديَّةُ بينكمـــا :
أنَّ سيفانِ سيفَـكَ ..
صوتانِ صوتَــكَ
أنك إنْ متَّ :
للبيــت ربٌّ
وللطفـل أبْ .

هـل يصـيرُ دمى ــ بين عينيـك ــ مـاءً ؟
أتنسـى ردائى الملطَّـخَ ..
تلبـسُ ــ فوق دمائى ــ ثياباً مطرَّزةً بالقصـــبْ ؟
إنهـا الحربُ !
قد تثقـلُ القلــبَ ..
لكنَّ خلفـك عـارَ العـرب .
لا تصالــحْ ..
ولا تتـوخَّ الهَـرَبْ !

(٢)

لاتصالح على الدم .. حتى بدم !
لاتصالحْ ! ولو قِيلَ رأسٌ برأسٍ ،
أكُلُّ الرؤوسِ سواءٌ ؟ !
أقلب الغريبِ كقلبِ أخيكَ ؟ !
أعيناه عينا أخيكَ ؟ !
وهل تتساوى يدٌ .. سيفُها كَان لَكْ
بيدٍ سيفُها أثْكَلَكْ ؟
سيقولونَ :
جئناكَ كى تحقن الدَم ..
جئناكَ . كُنْ — ياأميرُ — الحَكَمْ
سيقولون :
ها نحن أبناء عمّْ .
قل لهم : إنهم لم يُراعوا العمومةَ فيمن هَلَكْ .
واغرس السيفَ فى جبهة الصَّحراءِ ..
إلى أن يجيبَ العَدَمْ .
إننى كنتُ لَكْ .
فارساً .

وأخـاً .
وأبـاً .
ومَلِـكْ !

(٣)

لاتصالح ..
ولو حَرمَتْكَ الرقادْ
صرخاتُ الندامةْ .
وتذكَّرْ ..
(إذا لَان قلبُك للنسوةِ اللابساتِ السوادْ ولأطفالهنَّ الذين تخاصمهم الابتسامة)
أن بنتَ أخيكَ « اليمامة »
زهرةٌ تتسربل — فى سنوات الصبا —
بثيابِ الحدادْ .
كنتُ ، إن عدتُ :
تعدو على دَرَجِ القصرِ ،
تمسكُ ساقىَّ عند نزولى ...
فأرفعها — وهى ضاحكةٌ —
فوق ظهر الجوادْ .

ها هي الآن .. صامتةٌ .
حرمتها يدُ الغدرِ : .

من كلماتِ أبيها ،
أرتداءِ الثياب الجديدةِ ،

من أن يكون لها — ذات يوم — أخٌ !
من أبٍ يتبسَّمُ في عرسها ..
وتعودُ إليه إذا الزوجُ أغضبها ..
وإذا زارها .. يتسابق أحفادُه نحو أحضانهْ ،
لينالوا الهدايا ..
ويلهوا بلحيته (وهو مستسلمٌ)
ويشدُّوا العمامة .
لا تصالحْ !
فما ذنبُ تلك اليمامة
لترى العشَّ محترقاً .. فجأةً ،
وهي تجلس فوق الرمادْ ؟ !

(٤)

لاتصالحْ
ولو تَوَّجوكَ بتاج الإمارة .
كيف تخطو على جثةِ ابنِ أبيكَ .. ؟
وكيف تصيرُ المليكَ ..
على أوْجُهِ البهجةِ المستعارة ؟
كيف تنظر فى يدِ من صافحوكَ ..
فلا تبصر الدَمْ ..
فى كلِّ كفْ ؟
ان سهماً أتانى من الخلفْ ..
سوف يجيئكَ من ألفِ خلفْ .
فالدمُ — الآن — صار وساماً وشارة .
لاتصالحْ ،
ولو توَّجوكَ بتاج الإمارة
إن عرشَكَ : سيفٌ

وسيفَكَ : زيفٌ
إذا لم تزِنْ — بذؤابته — لحظاتِ الشرفْ
واستطَبتَ — الترفْ

(٥)

لاتصالــح
ولو قال مَنْ مالِ عند الصـدامْ
« .. ما بنا طاقــةٌ لامتشاقِ الحسامْ .. »
عندما يملأُ الحقُّ قلبَــكَ :
تندلع النارُ إن تتنفَّـسْ
ولســانُ الخيانـةِ يخرسْ

لاتصالــحْ ،
ولو قيلَ ما قيلَ من كلمات الســلامْ .
كيف تستنشقُ الرئتانِ النسيمَ المُدَنَّسْ ؟
كيـف تنظرُ فى عينىْ امرأةٍ ..
أنت تعرف أنك لا تستطيع حمايتها ؟
كيف تُصْبح فارسَهـا فى الغـرام ؟
كيـف ترجو غداً .. لوليدٍ ينـام
ـــ كيف تحلم أو تتغنى بمستقبلٍ لغـلام
وهو يكبُر ـــ بين يديـك ـــ بقلـب منُكَّسْ ؟
لا تصالــحْ
ولا تقتسـم مع من قتلوكَ الطعـام .

وأروِ قلبَك بالدم ..
وارو الترابَ المقدسْ ..
وارو أسلافَكَ الراقدينَ ..
الى أن تردَّ عليك العظام !

(٦)

لا تصالحْ ،
ولو ناشدَتْكَ القبيلة
باسم حزنِ « الجليلة »
أن تسوق الدهاءَ ،
وتُبدى — لمن قصدوكَ — القبولْ .
سيقولونَ :
ها أنتَ تطلبُ ثأراً يطولْ .
فخُذْ — الآنَ — ما تستطيعُ :
قليلًا من الحقِّ ..
فى هذه السنواتِ القليلة .
إنه ليس ثأرَكَ وحدَك ،
لكنه ثأر جيلٍ فجيْل .

وغــدا ..
سوف يولدُ من يلبسُ الدرعَ كاملةً ،
يوقد النّار شاملةً ،
يطلب الثأرَ ،
يستولد الحقَّ ،

من أضلعِ المستحيـلْ .

لا تصالـحْ ،
ولو قيلَ إن التصالحَ حيلــةْ .
إنه الثأرُ .
تبهتُ شُعلتهُ فى الضلوعِ ..
إذا ما توالتْ عليها الفصولْ ..
ثم تبقى يدُ العارِ مرسومةً (بأصابعها الخمس)
فـوق الجباهِ الذليلةْ ! .

(٧)

لا تصالــحْ ، ولو حذَّرتْكَ النجـومْ
ورمى لَك كُهّانُها بالنبأْ ..
كنتُ أغفـر لو أننى مِـتُّ ..

ما بين خيطِ الصوابِ وخيطِ الخطأْ .
لم أكن غازياً ،
لم أكن أتسلّلُ قربَ مضاربِهمْ
أو أحومُ وراءَ التخـومْ
لم أمدَّ يداً لثمار الكرومْ
أرضَ بستانِهم لم أطَـأْ
لم يَصِحْ قاتلى لى : « انتَبِهْ » !
كان يمشى معى ..
ثم صافحنى ..
ثم سار قليلاً
ولكنّه فى الغصونِ اختبأْ !
فجأةً :
ثقبَتْنى قُشَعْريرةٌ بين ضلعين ..
واهتزّ قلبى ــ كفُقّاعةٍ ــ وانفثأْ .

وتحاملتُ ، حتى احتلمتُ على ساعدىَ
فرأيتُ : ابنَ عمى الزنيمْ
واقفاً يتشفّى بوجهٍ لئيمْ

لم يكن فى يدى حربةٌ ،
أو سلاحٌ قديم ،
لم يكن غيرُ غيظى الذى يتشكَّى الظَّمأْ .

(٨)

لا تصالحْ ،
إلى أن يعودَ الوجودُ لدورته الدائرة :
النجومُ .. لميقاتِها
والطيورُ .. لأصواتِها
والرمالُ .. لذراتِها
والقتيلُ لطفلته الناظرةْ .
كلُّ شيء تحطَّمَ فى لحظةٍ عابرة :
الصبا ــ بهجةُ الأهل ــ صوتُ الحصان ــ التعرُّفُ بالضيفِ ــ همهمةُ
القلب حين يرى برعماً فى الحديقة يذوى ــ الصلاةُ لكى ينزلَ المَطَرُ
الموسمىُّ ــ مراوغة القلب حين يرى طائرَ الموتِ
وهو يرفرفُ فوق المبارزة الكاسرةْ .
كلُّ شيء تحطم فى نزوةٍ فاجرة .
والذى اغتالنى : ليس ربّاً ..

ليقتلني بمشيته
ليس أنبلَ منّي .. ليقتلني بسكينتِهِ ،
ليس أمهَر منّي .. ليقتلَني باستدارتِه الماكرةْ

لا تصالحْ ،
فما الصلحُ إلا معاهدةٌ بين ندَّيْنِ ..
(في شرف القلبِ)
لا تُنتَقَصْ

والذي اغتالني مَحْضُ لصْ
سَرَقَ الأرضَ من بين عينيَّ
والصمتُ يُطلقُ ضحكته السَّاخِرةْ !

(٩)

لا تصالحْ ،
ولو وَقَفتْ ضدَّ سيْفِكَ كلُّ الشيوخْ ،
والرجالُ التي ملأتها الشروخْ ،
هؤلاء الذين يُحبُّون طعم الثريدْ ،
وامتطاءَ العبيدْ ،

هؤلاء الذين تدلَّت عمائمُهم فوق أعينهم ،
وسيُوفهُم العربيَّةُ قد نَسِيتْ سنواتِ الشموخْ
لا تصالحْ ،
فليس سوى أن تريدْ .
أنت فارسُ هذا الزمانِ الوحيدْ
وسواكَ .. المسوخ !

((١٠)

لاتصالحْ
لاتصالحْ !

نوفمبر ؛ تشرين الثانى ؛ ١٩٧٦

« أقــوال اليمامــة »

« فلما جاءته الوفود ساعية الى الصلح ، قال لهم الأمير سالم أصالح اذا صالحت اليمامة . فقصدت الى اليمامة أمها الجليلة ومن معها من نساء سادات القبيلة ، فدخلن اليها ، وسلمن جميعا عليها ، وتقدمت الجليلة بنتها وقالت : أما كفى ؟ فقد هلكت رجالنا وسلمت أحوالنا وماتت فرساننا وأبطالنا . فأجابتها اليمامة : أنا لا أصالح ، ولو لم يبق أحد يقدر أن يكافح .. »

(١)

أبى .. لا مزيد !
أريدُ أبى ، عند بوابةِ القصرِ ،
فوقَ حصانِ الحقيقةِ ،
منتصباً .. من جديدْ

. . .

ولا أطلبُ المستحيلَ ، ولكنَّهُ العدلُ :
هل يرثُ الأرضَ الا بنُوها ؟
وهل تتناسَي البساتينُ من سكنُوهَا ؟
وهل تتنكّر أغصانها للجذورِ ..
(لأن الجذورَ تهاجرُ فى الاتجاهِ المعاكسِ ؟ !)
هل تترنّم قيثارةُ الصمتِ ..
الا إذا عادَتْ القوسُ تنزعُ أوتارهَا العَصبيَّة ؟
والصدُر ! حتّى متَى يتحملُ أن يحبس القلبَ ..
قلبى الذى يشبهُ الطائر الدموِّى الشريدْ ؟

... ...

هِىَ الشَّمسُ ، تلكَ التى تطلعُ الآنَ ؟
أم أنّها العينُ — عينُ القتيلِ — التى تتأمَّلُ شاخصةً :
دَمَهُ يترسَّبُ شيئاً فشيئاً ..
ويخضرُّ شيئاً فشيئاً ..
فتطلعُ من كلِّ بقعةِ دمٍ : فمٌ قرمزىٌّ ..
وزهرةُ شرٍّ ..
وكفّانِ قابضتانِ على منجلٍ منْ حديد ؟
هِىَ الشمسُ ؟ أمْ أنها التاجُ ؟
هذا الذِىْ يتنقَّلُ فوقَ الرؤوسِ الى أنْ يعودَ
الى مفرقِ الفارسِ العربىِّ الشهيد ؟

أقولُ لكُمْ : أيُّها الناسُ كونُوا أناسا !
هِىَ النارُ ، وهْىَ اللسانُ الذّى يتكلّمُ بالحقِّ !
ان الجروحَ يطهِّرُها الكىُّ ،
والسيفَ يُصقله الكَيرُ ،
والخبْزَ يُنضجه الوهجُ ،

لاتدخلـوُا معمدانية المياءِ ...
بل معمدانيَّـة النـارِ ..
كونُوا لها الحطَبَ المُشتهَى والقلوبَ : الحجـارةَ ،
كونُوا .. الى أنْ تعـودَ السماواتُ زرقـاءَ ،
والصحـراءُ بتـولًا ..
تسيرُ عليْها النجومُ محمَّلةً بسـلالِ الورودِ .

... ...

أقولُ لكمْ : لا نهايـةَ للنّمِ ..
هَلْ في المدينةِ يضـربُ بالبـرقِ ، ثم يظلُّ الجـو
على سـرِر النوْمِ ؟
هـل يرفعُ الفخُّ من ساحة الحقلِ .. كَي تطمئنَّ العصافيرْ
انَّ الحمـامَ المطوقَ ليس يقدمُ بيضَتـهُ للثعابـين ..
حتى يسـودَ السلامْ .
فكيـف أقـدِّمُ رأسَ أبي ثمنـاً ؟
من يطالبنى أن أقـدِّم رأسَ أبي ثمنـاً .. لتمرَّ القوافلُ آمنـةً ،
وتبيـع بسـوقِ دمشـقَ : حريرا من الهنـدِ ،
أسلحـةً من بخـارى ،
وتبتـاعُ من بيتِ جالاً العبيـدَ !

« مراثي اليمامة »

صارَ ميراثُنا في يدِ الغرباء .

وصارت سيوفُ العدوّ : سقوفَ منازلنا .

نحْنُ عبّادُ شمسٍ يشيرُ بأوراقهِ نَحْوَ أرْوقَةِ الظلِّ .

إن التويّجَ الذى يتطاولُ :

يحرقُ هامتهُ السقفُ ،

يَخرطُ قامَتهُ السيفُ ،

إن التويّجَ الذى يتطاولُ :

يسقط فى دَمِهِ المُنْسَكِبْ !

نستقى — بعد خيل الأجانب — من ماء أبارِنا .

صوفَ حملاننا ليسَ يلتفُ إلا علىَ مغزلِ الجزيْةِ .

النارُ لاتتوهجُ بينَ مضاربِنا .

بالعيونِ الخفيضَةِ نستقبلُ الضيفَ .

أبكارُنا ثيباتٌ ..
وأولادُنا للفراشِ ..
ودراهِمُنَا فوقها صورةُ المِلكِ المُغْتَصِبْ .
أيادى الصبايَاَ الحنائنُ تضمُّ على صدرهِ نصْفَ ثوبٍ .
وتَبقَى عيونُ كليبٍ مسمَّرةً فى شواشى الجنائنْ .

أسائلُ :
من للصغارِ الذين يَطيرونَ — كالنَّحْلِ — فوقَ التلال ؟
ومن للعذارى اللّواتى جَعلنَ القلوبَ :
قواريرَ تحفظُ رائحَةَ البرتقال ؟
ومن سيروِّضُ مُهْرَ الخيالِ ؟
ومنْ سيضمّدُ — فى آخرِ الصيْد — جُرْحَ الغزالِ ؟
ومنْ للرجالِ ..
إذا قيلَ « ما نسبُ القومِ » ؟ ...
فانسكبتْ فى خدودِ الرّمالِ دموعُ السؤالِ ؟
بناتُ أبى — الزهراتُ الصغيراتُ — يسألننى
لم أبكى أبى !
ويبكينَ مثلى ،

ويخلدنَ للنَّوْمِ حين أغالبَ دمعـي ،

وأروي لهنّ الحكَايَــا

عَـنْ المَلِكِ النســرِ

والمِلــكِ الثعلــبِ

فإن يَمْنَ .. جاء أبي .. ليهزَّ الأراجيــحَ ..

يلمُــس وجناتِهــنَّ ..

ويعطــي لهنَّ اللعبْ ..

ويمضـي .. وعيناهُ مسبلتــانِ ..

وساقاهُ تشتكيـانِ التعبْ ..

أبـي ظامـيء يارجـال

أريقوا لـه اللمَ كي يرتـوِي .

وصبُّوا لـه جرْعةً جرْعةً في الفؤادِ الذي يكتـوِي

عسَـى دمُهُ المتســرِّبُ بينَ عروقِ النباتــاتِ ،

بين الرمَــال ..

يعـودُ لـهُ قطرةً قطرةً ..

فيعــودُ لُه الزمنُ المنطِـوِي .

(٢)

خصومةُ قلبي مَع اللهِ .. ليسَ سواهُ
أبى أخذَ المُلْكَ سيفاً لسيف ، فهلْ يُؤْخذُ المُلْكُ
منهُ اغتيالًا ،
وقدْ كلَّلتْهُ يدا اللهِ بالتاجِ ؟ !
هلْ تنزعِ التاجَ إلا اليدانِ المباركتانِ ،
وهلْ هانَ ناموسَهُ فى البريَّةَ
حتَّى يتوجَ لصٌّ .. بما سرقتْهُ يداهُ ؟
خصومةُ قلبى مَع الله ..
إنى أنزهُ سهمَ منيتِهِ أن يجىءَ منَ الخلفِ ،
إنَّ الذى يُطلقُ السهمَ ليسَ هُوَ القوسَ ..
بلْ قلبُ صاحبِهِ ،
والذى يجعلُ النفسَ تستقبلُ الموتَ راضيةً ..نبْلُ واهبِهِ
فأنا أرفضُ الموتَ غدراً ..
فهلْ نزلَ اللهُ عَن سهمِهِ الذهبىِّ لمنْ يستهينَ به .
هلْ تكونُ مكَانَ أصابِعهِ .. بصماتُ الخطاه ؟

خصومةُ قلبى معَ اللهِ .. ليسَ سواهُ !

كليبٌ يموت ..
ككلبٍ تصادفهُ فى الفلاة ؟
إذنْ فلماذا كَسا وجهَهُ الصورةَ الآدميةَ ؟
هَلْ كرَّمَ اللّه انسانَهُ ؟
مات من ماتَ كلباً .. فأينَ إذْن ذهبَ الآدمُى الذى
قدْ براهُ ؟
خصومةُ قلبي معَ اللهِ
قلبى صغيرٌ كفستقهِ الحزنِ .. لكنّه فى الموازين
أثقلُ من كفّةِ الموتِ
هلْ عرفَ الموتُ فَقْد أبيه ،
هلْ اغترفَ الماءَ من جدْولِ الدَّمعِ ،
هلْ لَبس الموتُ ثوبَ الحِداد الذى حاكهُ .. ورماهُ ؟
خصومة قلبى مع اللهِ
أين وريثُ أبي ؟
ذهبَ الملكُ ،
لكّن لاسمِ أبى حقٌّ أنْ يتناقله أبنُه عنهُ
فكيفَ يموتُ أبي مرتين ؟
أيتها الأنجُم المتلونةَ الوجهِ :

قولى لـه :

قدْ سلبْـتَ حَياتيـن ..
أبـقِ حيـاه ..
وُردَّ حيـاهْ ..

خصومةُ قلبىَ معَ اللهِ .
هذا الكمـالُ الذى خلق الله هيأتـهُ ،
فكَسَا العظمَ بالنحـم ،
ما هـوُ : جسمـاً ـــ يعُود لهُ ـــ دونَ رأسٍ ،
فهـلْ تتقبـلُ بوابُ النبـيِ ما شَابَه العيبُ ،
أمْ أنَّ وجْهَ العدالةِ :
أنْ يرجَعَ الشلْوَ للأصـلِ ،
أنْ يرجَعَ البَعْدُ للقبْـلِ ،
أنْ ينهضَ الجسـدُ المتمزِّقُ مكتملَ الظـلِّ
حتَّى يعودَ إلى اللـهِ .. متحـداً فى بهاهُ ؟

(٣)

يجـىُء أخـى

هـلْ عباءتُهُ الريـحُ ؟
هـلْ سيفُهُ السـبرقُ ؟

هلْ يتمنطقُ فوق جوادِ السحاب ؟
يجيءُ أخي !
غافلًا عن كتابِ المواريثِ
عَنْ دمهِ الملكيِّ ،
عَن الصولجان الذى صارَ مقبَضُه العاج :
رأسَ غرابِ !
يجيءُ أخي .
(كَانَ يعرفُهُ القلبُ !)
أقْذُفُ تفاحةً
يتصدى لَها وهُوَ يطحنُها بالركابِ !
(هى الخطأُ البشرُى الذى حرمَ النفسَ فردوسَهَا
الأوَل المستطاب)
أتْنَى ، فأقذفُ تفاحةً ..
تستقرُّ على رأسِ حربتهِ !
(أيُّها الوطنُ المستديرُ .. الذى تثقبُ الحربُ عَفرته
بالحرابِ)
.. وتفاحُة تتلقفها يدُه !
(هَى جوهَرةُ المُلْكِ ،
جوهَرةُ العدْلِ ،

جوهَرةُ الحبِّ ..
فالحبُّ آبْ !)

... ...

قلوبٌ ثلاثيةٌ بشارةُ الزمنِ القادِمِ المستجابِ
قفُوا ياشبابِ !
لمْن جاءَ من رحمِ الغيبِ ،
خاضَ بساقيه فى بركةِ الدمِ ،
لم يتناثْر عليهِ الرشاشُ ،
ولم تبدُ شائبةٌ فى الثيابِ !
قفوا للهلالِ الذى يستديرُ ..
ليصبحَ هالاتِ نورٍ على كل وجهٍ وبابْ !
قفُوا ياشبابْ !
كليبٌ يعوُد ..
كعنقاءَ قد أحرقتْ ريشهَا
لتظلَّ الحقيقةُ أبهى ..
وترْجع حلتُها — فى سنَا الشمسِ .. أزْهىَ ..
وتفردَ أجنحةَ الغدِ ..
فوقَ مدائنَ تنهضُ من ذكرياتِ الخرابِ !!

« أشـــارات تاريخيـــة »

البســـوس :

هي المرأة التي أثارت الفتنة بين قيس ، وأشعلت الحرب أربعين سنة ، وأثارت بني بكر على بني تغلب ، وحملت اسمها الملحمة . وهي كما تقول الرواية(شاعرة عجوز من عجائب الزمان ، ذات مكر واحتيال وخداع). وكان لها أربعة أسماء (سعاد .. تاج بخت .. هنـد . البسوس) وهي أخت الملك حسان اليماني الذي قتله الأمير كليب من أجل ابنة عمه وخطيبته الجليلة .

كليب بن ربيعـة :

اسمه وائل وكليب لقبه ، نشأ في حجر أبيه ، ودرب على الحرب ، ثم تولى قيادة الجيش لبكر وتغلب زمنا .. « فكان ليث الصدام ونقمة الليالي كما تقول الرواية .

جليلة بنت مرة :

شاعرة .. ابنة عم كليب وزوجته التى انجبت له سبعة بنات ولد بعد موته هو (المجرس) البطل المنتقم لأبيه .

وبعد مقتل زوجها كليب على يد أخيها جساس خرجت من تغلب وتنقلت مع بنى شيبان قومها مدة حروبهم حتى ماتت .

سامة :

كبرى بنات كليب .. تقول الرواية انها رفضت الديه فى أبيها كانت تقول :

« أنا لا أصالح حتى بقوم والدى
ونراه راكب بهد لقاكم »

وقد اختصمت مع امها لانها أخت قاتل كليب .. حتى رحلت الجليلة مع قومها .

ساس بن مرة :

ابن عم لكليب وقاتله بعد ان نجحت البسوس (التى اقامت فى
يافته) فى أن تثير الفتن : بأن أمرت عبيدها أن يطلقوا ناقتها الجرباء
ى فى البستان المعروف بحى كليب . وتدمر الاشجار والاسوار ..
نى أمر كليب بذبح الناقة . ويقال أن جساسا هو آخر قتيل فى
رب البسوس التى استمرت منذ مقتل كليب وحتى مصرع جساس
مين عاما .

لهل بن ربيعة :

هو سالم الملقب بالزير أو أبو ليلى المهلهل الكبير .. أخو
يب وبطل السيرة والملحمة .. يصفه الرواه : (بالأسد الكرار والبطل
المغوار صاحب الأشعار البديعة والوقائع المهولة المريعة) .

عندما أعلنته اليمامة وصية أبيها قال : انى لا اصالح الى الابد ما دامت روحى فى هذا الجسـد .

« تذييـــل »

« حاولت أن أقدم فى هذه المجموعة حرب البسوس التى استمرت أربعين سنة عن طريق رؤيا معاصـــرة .

وقد حاولت أن أجعل من كليب رمزا للمجد العربى القتيل و للارض العربية السليبة التى تريد أن تعود الى الحياة مرة أخرى ولا ترى سبيلاً لعودتها أو بالاحرى لاعادتها الا بالدم .. وبالدم وحـده ..

وهذه المجموعة عبارة عن قصائد مختلفة ، استحضرت شخصيات الحرب وجعلت كلا منها يدلى شهادتها التاريخية حول رؤيتها الخاصة .. ومن الطبيعى أن يكون لكل من هذه الشخصيات شهادتها المختلفة عن شهادة الاخرى ..

لقد استحضرت الملك كليب نفسه فى ساعاته الاخيرة ، وأدلت اليمامة التى كانت ترفض الصلح بشهادتها وكذلك فعل المهلهل الذى قاد الحرب انتقاما له .. وقدمت شهادة جساس مع تبريراته لجريمته ثم

شهادة جليلة بنت مرة الممزقة بين البطلين .. « زوجها وأخيها » ثم أتبعت بشهادات لبعض الشخصيات التى تلعب دورا ، معلقا على الأحداث ..»

أمل دنقل
عن مجلة آفاق عربية ١٩٨١

والديوان بصورته الأخيرة هذه .. يحتوى على شهادتين في قصيدتين فقط هما : « الوصايا العشر ، وأقوال اليمامة ومراثيها » وقد كتبت قصائده ما بين (١٩٧٦ ــ ١٩٧٧) .

أما الشهادات (القصائد) الأخرى التى تحدث عنها أمل فقد ظلت تتبدل وتتغير يوما بعد آخر ، رافضة الوصول إلى حل يقنع الشاعر باكتمالها النهائى ، ذلك على الرغم من اكتمال اجزاء كثيرة منها فى ذاكرة الشاعر (الذى لا يسجل قصيدته على الورق إلا بعد أن يقتنع باكتمالها الأخير)

ومات أمل قبل إن تكتمل شهاداته (قصائده) فى ذهن المبدع ، وقبل أن يقنع ذهنه المبدع بصيغه ابداعية أخيرة ، وقبل أن ينتقم الزير لمقتل أخيه كليب ، وقبل أن تضع الحروب لوزارها ، لتظل الرؤيا باحثة عن حل يكتمل فى الابداع ، أو يتحقق فى الواقع .

* * *

أوراق الغــرفة [٨]

بمحتوي والورقة الاخيرة
وادوس احد البرجة اهـ ٢

عم صباحاً أيها الصقر المُجَنَّح
عم صباحا .
سنة تمضى ، وأخرى سوف تأتى .
فمتى يقبل موتى ..
قبل أن أصبحَ — مثل الصقرِ —
صقراً مستباحا !؟

بكائية لصقر قريش

صورة

هل أنا كنت طفلاً ..
أم ان الذى كان طفلاً سواى ؟
هذه الصورُ العائليةُ ..
كان أبى جالساً ، وأنا واقفٌ .. تتدلى يداى !

رفسةٌ من فَرَسْ
تركَت فى جبينى شجاً ، وعلَّمتِ القلب أن يحترسَ .
أتذكرُ ...
سال دمى
أتذكرُ ..
مات أبى نازفاً .

أتذكرُ ..
هذا الطريقَ إلى قبره ..
أتذكرُ ..
أختي الصغيرةَ ذات الربيعين .
لا أتذكر حتى الطريق إلى قبرها
المنطمسّ

أوَ كان الصبيُّ الصغير أنا ؟
أم ترى كان غيرى ؟
أحدّقُ ..

لكن تلك الملامح ذات العذوبةِ .
لا تنتمى الآن لى .
والعيون التى تترقرق بالطيبة
الآن لا تنتمى لى .
صرتُ عنى غريبا .
ولم يتبقَ من السنوات الغريبةِ
إلا صدى اسمى ..

وأسماءُ من أتذكرهم ــ فجأة ــ
بين أعمدة النعىّ ،
أولئك الغامضون : رفاق صباى .
يقبلون من الصمت وجهاً فوجها ..
فيجتمع الشملُ كلَّ صباحٍ،
لكى نأتنسْ .

وجــــه

كان يسكن قلبى
وأسكن غرفتهُ
نتقاسم نصفَ السريرِ ،
ونصف الرغيف ،
ونصف اللفافةِ ،
والكتبَ المستعارةْ .

هجرَتْه حبيبته فى الصباحِ فمزَّقَ شريانه فى المساء ،
ولكنه بعد يومين مَزَّقَ صورتها ..
واندهشْ .

لم ينخدش .
واستراح من الحربِ ..
عاد ليسكن بيتا جديداً
ويكسب قوتا جديداً
يدخن علبة تبغ بكاملها
ويجادل أصحابه حول أبخرة الشاى ..
لكنه لا يطيل الزيارة :
عندما احتقنت لوزتاه ، استشار الطبيبَ ،
وفى غرفة العمليات ..
لم يصطحب أحداً غير خُفَّيهِ ..
وأنبوبة لقياس الحرارة ،
فجأة مات !
لم يحتمل قلبه سريان المخدر ،
وانسحبت من على وجه سنواتُ العذابات ،

عاد كما كان طفلا ..

يشاركنى فى سريرى
وفى كسرة الخبز ، والتبغ ،
لكنه لا يشاركنى .. فى المرارة !

٭

زوجـــه

من أقاصى الجنوب أتى ، عاملاً
للبناء
كان يصعد « سقالةً » ويغنى لهذا الفضاء
كنت أجلس خارج مقهى قريب ،
وبالأعين الشاردة ..
كنت أقرأ نصفَ الصحيفة ،
والنصفَ أخفى به وسخ المائدة .
لم أجد غير عينين لاتبصران ..
وخيطَ الدماء .
وانحنيْتُ عليه .. أجس يَدهْ
قال آخر : لا فائدةْ

صار نصفُ الصحيفةِ كلُّ الغِطاءْ
وأنا .. في العراءْ

وجـــه

ليت « أسماءَ » تعرفُ أن أباها صَعَدْ
لم يمتْ
هل يموت الذى كان يحيا
كأن الحياة أبدْ !
وكأن الشراب نفدْ !
وكأن البناتِ الجميلاتِ يمشين فوق الزبدْ !
عاش منتصباً ، بينما
ينحني القلبُ يبحث عما فقدْ .
ليت « أسماءَ » تعرف أن أباها الذى ..
حفظ الحبُ والأصدقاءُ تصاويرَه :.
وهو يضحكُ ،

وهو يفكرُ ،

وهو يفتش عما يقيم الأودْ .

ليت « أسماءَ » تعرف أن البْناتِ الجميلاتِ ..

خَبّأنه بين أوراقهن ،

وعلّمنَه أن يسيرَ ..

ولا يلتقى بأحدْ !

مـــرآة

ـــ هل تريد قليلاً من البحر ؟

ـــ إن الجنوبى لا يطمئن إلى اثنين يا سيدى :

البحر ـــ والمرأة الكاذبة .

ـــ سوف آتيك بالرمل منه

... وتلاشى به الظلُّ شيئاً فشيئاً ،

فلم أستبنه

ـــ هل تريدُ قليلا من الخمر ؟

ـــ إن الجنوبى يا سيدى يتهيب شيئين :

قنينةُ الخمرِ ـــ والآلةَ الحاسبةْ .
ـــ سوف آتيك بالثلجِ منه .
وتلاشى به الظل شيئاً فشيئاً ...
فلم أستبنه .

بعدها لم أجدْ صاحِبىَّ
لم يعد واحدٌ منهما لى بشئْ
ـــ هل تريد قليلا من الصبرِ ؟
ـــ لا ..
فالجنونى يا سيدى يشتهى أن يكون الذى لم يكنْ
يشتهى أن يلاقى اثنتين :
الحقيقةَ ـــ والأوجهَ الغائبهْ .

في غُرفِ العمليات ،
كان نقابُ الأطباء أبيض ،
لونُ المعاطف أبيض ،
تاجُ الحكيمات أبيض ، أرديةُ الراهباتُ ،
الملاءاتُ ،
لونُ الأسرَّة ، أربطةُ الشاش والقطن ،
قرصُ المنومِ ، أُنبوبةُ المصل ،
كوبُ اللبن .
كلُّ هذا يشيعُ بقلبي الوهن .
كلُّ هذا البياض يذكرني بالكفنْ !
فلماذا إذا متُّ ..

يأتى المعزُّون متشحين ..
بشارات لون الحداد ؟
هل لأنِ السواد ..
هوِ لونُ النجاة مِن الموتِ ،
لونُ التميمةِ ضد .. الزمنْ ،

ضد منْ .. ؟
ومتى القلب ـــ فى الخفقان ـــ اطمأن ؟!

بين لونين : أستقبل الأصدقاء ..
الذين يرون سريرىَ قبرا
وحياتىَ ... دهرا

وأرى فى العيون العميقةِ
لونَ الحقيقةِ
لونَ تراب الوطنْ !

وسلالٍ من الوردِ ،
ألمحها بين إغفاءةٍ وإفاقة
وعلى كل باقةْ
اسمُ حاملها فى بطاقة
... ...
تتحدثُ لى الزهراتُ الجميلةُ
أن أعينها اتسعت — دهشةً —
لحظةَ القطفِ ،
لحظةَ القصفِ ،
لحظةَ إعدامها فى الخميلةْ !
تتحدثُ لى ..
أنها سقطت من على عرشها فى البساتين

ثم أفاقت على عَرضِها فى زجاج الدكاكين ، أو بين أيدى المنادين ،
حتى اشترتها اليدُ المتفضلةُ العابرةْ
تتحدث لى ..
كيف جاءت الىّ ..
(وأحزانُها الملكيةُ ترفع أعناقها الخضرَ)
كى تتمنى لىَ العمرَ !
وهى تجود بأنفاسها الآخرةْ !!

كلُّ باقةْ ..
بين إغماءةٍ وإفاقةْ
تتنفس مثلىَ ــ بالكادِ ــ ثانيةً .. ثانيةْ
وعلى صدرها حَمَلت ــ راضيةْ ..
اسمَ قاتِلِها فى بطاقةْ !

السـرير

أوهمونى بأن السريرَ سريرى !
أن قاربَ « رغ »
سوف ــ يحملنى عبر نهر الأفاعى
لأولدَ فى الصبح ثانيةً .. إن سَطَعْ
(فوق الورقِ المصقولْ
وضعوا رقمى دون اسمْ
وضعوا تذكرةَ الدمْ
واسمَ المرضِ المجهولْ)

أوهمونى فصدَّقتُ ..
(هذا السريرْ
ظلّنى ــ مثله ــ فاقدَ الروح

فالتصقتْ بيَ أضلاعُه
والجمادُ يضمُّ الجمادَ ليحميَهُ من مواجهةِ الناسِ !)
صرتُ أنا والسريرْ ..
جسداً واحداً .. في انتظارِ المصيرْ !

(طولَ الليلاتِ الألفْ
والأذرعةُ المعدنْ
تلتفُّ وتتمكنْ
في جسدى حتى النزفْ

صرتُ أقدرُ أن أتقلّبَ في نومتى واضطجاعى
أنْ أحرّكَ نحو الطعام ذراعى ..
واستبان السرير خِداعى ..
فارتعشْ !
وتداخل — كالقنفذِ الحجرىِّ — على صمته وانكمشْ
قلتُ : يا سيدى .. لمَ جافيتنى ؟
قال : ها أنت كلمتنى ..
وأنا لا أجيب الذين يمرون فوقى

سوى بالاثنين
فالأسرّةُ لا تستريح إلى جسدٍ دون آخرَ
الأسرّةُ دائمةٌ
والذين ينامون سرعان ما ينزلونْ
نحو نهر الحياة لكي يسبحوا
أو يغوصوا بنهر السكونْ !

لعبة النهاية

فى الميادين يجلس ،
يطلق — كالطفل — نبلته بالحصى ..
فيصيبها بها من يصيب من السابلة !

يتوجه للبحر ،
فى ساعة المدّ :
يطرح فى الماء سنارة الصيد ،
ثم يعود ..
ليكتب أسماء من علقوا
فى أحابيله القاتلة !
لا يحبُّ البساتينَ ..

لكنه يتسلل من سورها المتآكلِ ،
يصنع تاجاً :

جواهرُهُ .. الثمرُ المتعفنُ ،
إكليلهُ .. الورق المتغضنُ ،
يلبسه فوق طوق الزهورِ

الخريفيةِ
النابلةْ !

يتحول : أفعى .. ونايا
فيرى فى المرايا ::
جسدين وقلبين متحدين ،
(تغيمُ الزوايا
وتحكى العيونُ حكايا)
فينسلُ بينهما ..
مثل خيطٍ من العرق المتفصِّدِ ،
يلعقُ دفءَ مسامهما ،
يغرسُ النابَ فى موضع القلبِ :
تسقط رأسُ الفتى فى الغطاء ،

وتبقى الفتاة ..
محدِّقةً
ذاهلةً .. !
أمس : فاجأته واقفا بجوار سريرى
ممسكاً – بيدٍ – كوبَ ماءْ
وبيدٍ – بحبوب الدواءْ
فتناولتها .. !
كان مبتسماً
وأنا كنت مستسلماً
لمصيرى !!

(١)

تتساقط أوراقُ « ديسمبر » الباهتة !

... ...

هو عُمْرٌ من الريح

(هذا الذى بين أن تترك الوَرْقَةُ الغصنَ

حتى تلامسَ أطرافُها حافةَ الأرض)

عمرٌ من الاضطرابْ

فافترشن جوارى ــ أيتها الباحثات عن الذات ــ

وجهَ الترابْ

وتعالينَ .. نروِ الأقاصيصَ ..

عن راحة الروح

عن لذة الاغترابْ
وعبودية الأغصن الثابتة .

(٢)

أخذوا أصدقائىَ للسجنِ ،
لكنهم فى ليالى الحنينْ
يقبلون ، لنشرب كأسين ..
فى البار ذى الردهة الخالية
فاذا دقت الساعةُ الثانيةْ
صفق الخدمُ المتعبون
فاختفى أصدقائى وهم يضحكون
ـــ نلتقى ثانية
ـــ نلتقى الليلة التالية ..

... ...

بعدها خرجوا : انقطع الخيط ما بيننا
واستطال السكون
كان ما بينهم : ذكرياتٌ .. وخبز مريرٌ
ومسحة حزن

قلت : ها أصبحوا ورقا ثابتا فى شجيرة سجن
فمتى يفلتونَ
منْ الزمن المتوقف فى ردهات الجنونْ ؟

(٣)

ماهو الرخُّ ذو المخلبين يحومُ ..
ليحمل جثة ديسمبرَ الساخنةْ
ها هو الرخ يهبطُ ..
والسحْب تلقى على الشمس طرحتها الداكنة

قالت الراهباتُ :
(سلامٌ علىُ الأرض !)
يا أيها الرخُّ : كم جثةً حملتها مخالبك الأبديةُ خلف الجبلْ ؟؟
ما الذى نحن نعطيكَ ــ يا أيها الرخ ــ منذ الأزلْ ؟
ما الذى نحن نعطيكَ ؟
لا شىء إلا توابيت ، لا شىء ،
إلا المبادلة الخائبة .
جثثٌ تتراكم فى الضفة الساكنة

بينما نحن ــ نمتلك النورَ
عشبَ البحيراتِ ــ صوت الكناريا ــ
مجالسةَ الورد ــ أنشودةَ المهد ــ رقصَ
البنات الصغيرات فى العرس ــ تمتمةَ
القطِّ فى الصلوات ــ خريرَ الينابيع ــ
هذا التساؤلَ عن لون عينين عاشقتين ،
كنافذتين على البحر ــ طعمَ القبلْ ؛
بينما أنت من ظلمة العدم الآسنةْ
تتلقى النفاياتِ تلو النفاياتِ دون كللْ
عاجزا عن ملامسةِ الفرح العذبِ ،
عن أن تبلَّ جناحك فى مطر القلبِ
أن تتطهر بالرقة الفاتنةْ !!

(٤)

قلت للورق المتساقطِ من ذكريات الشجرْ
إننى أترك الآن ــ مثلك ــ بيتى القديمْ
حيث تلقى بىَ الريحُ أرسو ــ

وليس معى غيرُ :

حزنى المقيمْ
وجوازُ السفرْ !

الطيور

(١)

الطيورُ مشرَّدةٌ فى السمواتِ ،
ليس لها أن تحط على الأرض ،
ليس لها غير أن تتقاذفها فلواتُ الرياح !
ربما تتنزلُ ...
كى تستريحَ دقائق ..
فوقَ النخيلِ — النجيلِ — التماثيلِ —
أعمدةِ الكهرباء —
حوافِ الشبابيك والمشربياتِ
والأسطحِ الخرسانية .
(اهدأْ ، ليلتقطَ القلبُ تنهيدةً ،

والفمُ العذبُ تغريدةً ،
والقطُ الرزق ..)
سرعانَ ما تتفزعُ ..
من نقلةِ الرِّجْل ،
. من نبلة الطفلِ ،
من ميلةِ الظل عبر الحوائط ،
من حصوات الصياحِ !

..

الطيورُ معلقةٌ فى السمواتِ
ما بين أنسجةِ العنكبوت الفضائىِّ : للريحِ
مرشوقةٌ فى امتداد السهام المضيئةِ
للشمسِ ،
(رفرِفْ ..
فليس أمامك —
والبشر المستبيحون والمستباحون : صاحون —
ليس أمامك غيرُ الفرارْ ..
الفرارُ الذى يتجدد .. كلَّ صباح !)

(٢)

والطيورُ التي أقعدتها مخالطةُ الناسِ ،
مَرَّتْ طمأنينةُ العيش فوق مَناسِرِها ..
فانتختْ ،
وبأعينها .. فارتختْ ،
وارتضتْ أن تقاقىءُ حول الطعامِ المتاحْ
ما الذى يتبقى لها .. غيرُ سكّينةِ الذبحِ ،
غيرُ انتظارِ النهايةِ .
إن اليدَ الآدميةَ .. واهبةَ القمح
تعرف كيف تسن السلاح !

(٣)

الطيورُ .. الطيورْ
تحتوى الأرضُ جثمانها .. فى السقوط الأخيرْ !
والطيور التى لا تطيرْ ..
طوت الريشَ ، واستسلمتْ
هل تُرى علمتْ
أن عمر الجناح قصيرْ .. قصيرْ ؟!

الجناحُ حياة
والجناحُ ردىً .
والجناحُ نجاة . .
والجناحُ .. سدى !

الخيــول

(١)

الفتوحات — في الأرض — مكتوبة بدماء الخيولْ .
وحدود الممالكْ
رسمتها السنابكْ .
والركابان : ميزانُ عدلٍ يميل مع السيف ..
حيث يميلْ !

ه ه ه

أركضي أو قفي الآن .. أيتها الخيلُ :
لستِ المغيراتِ صُبحا
ولا العاديات — كما قيل — ضبْحا

ولا خضرة فى طريقك تمحى
ولا طفل أضحى
إذا ما مررت به .. يتنحى ؛
وها هي كوكبةُ الحرسِ الملكىِّ ..
تجاهد أن تبعث الروحَ فى جسدِ الذكرياتِ
بدقِ الطبولْ .

اركضى كالسلاحفْ
نحو زوايا المتاحفْ ..
صيرى تماثيلَ من حجرٍ فى الميادينَ
صيرى أراجيح من خشبٍ للصغار ــ الرياحينَ ،

صيرى فوارس حلوى بموسمك النبوىِّ ،
وللصبيةِ الفقراء : حصاناً من الطينِ
صيرى رسوما .. ووهماً
تجف الخطوط به
مثلما جفَّ ــ فى رئتيك ــ الصهيل !

(٢)

كانت الخيلُ — فى البدء — كالناس
برِّية تتراكض عبر السهول

كانت الخيل كالناس فى البدءِ ...
تمتلك الشمسَ والعشبَ
والملكوتَ الظليلْ
ظهرُها .. لم يُوَطَّأ لكى يركبَ القادةُ الفاتحون ،
ولم يلن الجسدُ الحر تحت سياط المروِّضِ
والفم لم يمتثل للجام ،
ولم يكن الزادُ .. بالكادِ ،
لم تكن الساق مشكولةً ،
والحوافرُ لم يَكُ يثقلها السنبكُ المعدنىُّ الصقيلْ .

كانت الخيل برِّيَةً
تتنفس حُرِّيَةً
مثلما يتنفسها الناسُ

وفى ذلك الزمنِ الذهبىِّ النبيلْ

* * *

اركضى .. أو قفى
زمنٌ يتقاطعُ
واخترتِ أن تذهبي فى الطريق الذى يتراجعْ
تنحدر الشمس
ينحدر الأمسُ
تنحدر الطرق الجبليةُ للهُوَّةِ اللانهائيةِ :
الشهْبِ المتفحمةُ
الذكريات التى أشهرتْ شوكها كالقنافذِ
والذكريات التى سلخ الخوفُ بشرتها .
كل نهر يحاول أن يلمس القاع
كل الينابيع إن لمست جدولاً من جداولها
تختفى
وهى .. لا تكتفى !
فاركضى أو قفى
كل دربٍ يقودك من مستحيلٍ إلى مستحيلْ !

(٣)

الخيولُ بساطٌ على الريح ..
سار — على متنه — الناسُ للناسِ عبر المكانْ
والخيولُ جدارٌ به انقسمَ
الناسُ صنفين :
صاروا مشاةً .. وركبانْ
والخيولُ التي انحدرت نحو هوَّةِ نِسيانها
حملت معها جيلَ فرسانها
تركتْ خلفها : دمعةَ الندم الأبديِّ
وأشباحَ خيل
وأشباهَ فرسان
ومشاةً يسيرون — حتى النهايةِ — تحت ظلالِ الهوانْ .

أركضي للقرارْ
واركضي أو قفي فى طريق الفرارْ .
تتساوى محصلةُ الركضِ والرفضِ فى الأرضِ ،

ماذا تبقى لك الآن ؛
ماذا ؟
سوى عرقٍ يتصببُ من تعبٍ
يستحيل دنانيرَ من ذهبٍ
فى جيوب هُوَاةِ سلالاتك العربيةِ
فى حلبات المراهنةِ الدائريةِ
فى نزهة المركباتِ السياحيةِ المشتهاةِ
وفى المتعة المشتراةِ
وفى المرأة الأجنبيةِ تعلوكِ تحت
ظلالِ أبى الهول ..
(هذا الذى كسرت انفهُ
لعنةُ الانتظار الطويلْ)

استدارت — إلى الغربِ — مزولةُ الوقتْ
صارت الخيلُ ناساً تسيرُ إلى هُوَّةِ الصمتْ
بينما الناسُ خيلٌ تسير إلى هوة الموتْ !

مقابلة خاصة مع أبن نوح

جاء طوفانُ نوحْ !

... ...

المدينةُ تغرقُ شيئاً .. فشيئاً

تفرُّ العصافيرُ ،

والماء يعلو .

على درجات البيوتِ — الحوانيتِ — مبنى البريدِ — البن

التماثيلِ (أجدادِنا الخالدين) — المعابدِ — أجولةِ القمحِ

مستشفياتِ الولادةِ — بوابةِ السجنِ — دار الولايةِ —

أروقةِ الثكناتِ الحصينةْ .

العصافيرُ تجلو ..

رويداً ..

رويداً ..

ويطفو الإوزُ على الماء ،
يطفو الأثاث ..
ولعبةُ طفلٍ ..
وشهقةُ أم حزينةْ
الصبايا يلوِّحن فوق السطوحْ !
ءاء طوفانُ نوحْ .
ا همُ « الحكماءُ » يفرّونَ نحو السفينةْ
المغنونَ — سائسُ خيلِ الأميرِ — المرابونَ —
قاضى القضاةِ
.. ومملوكُهُ !) —
حاملُ السيفُ — راقصةُ المعبدِ

(ابتهجتْ عندما انتشَلتْ شعرَها المستعارْ)
ـ جباةُ الضرائبِ — مستوردُو شحناتِ السلاحِ —
عشيقُ الأميرةِ فى سمته الأنثوى الصبوحْ !
جاء طوفان نوحْ .
ها هم الجُبناءُ يفرُّون نحو السفينةْ .
بينما كنتُ ..
كان شبابُ المدينةْ

يلجمون جوادَ المياهِ الجموحْ
ينقلون المياهَ على الكتفين .
ويستبقون الزمنْ
يبتنونَ سدودَ الحجارةِ
عَلَّهُمُ ينقذونَ مهادَ الصبا والحضارةِ
عَلَّهُمُ ينقذونَ .. الوطنْ !

.. صاح بى سيدُ الفلكِ ــ قبل حلولِ
السكينةْ :
« انجُ من بلدٍ .. لم تعدْ فيه روحْ ! »

قلتُ :
طوبى لمن طعموا خبزه ..
فى الزمان الحسنْ
وأداروا له الظهرَ
يوم المحنْ !
ولنا المجد ــ نحن الذين وقفنا
(وقد طمسَ اللهُ اسماءنا !)

نتحدى الدمارَ ..
ونأوى إلى جبلٍ لا يموتُ
(يسمونه الشعبَ !)
.
نأبى الفرارَ ..
ونأبى النزوحْ !
... ...
... ...
... ...
كان قلبى الذى نسجته الجروحْ
كان قلبى الذى لعنته الشروحْ
يرقد — الآن — فوق بقايا المدينةْ
وردةً من عطنْ
هادئاً ..
بعد أن قال « لا » للسفينةْ
.. وأحبَّ الوطن !

خطاب غير تاريخي على قبر صلاح الدين

ها أنتَ تسترخي أخيرا ..
فوداعاً ..
يا صلاحَ الدينْ .
يا أيها الطبلُ البدائيُّ الذى تراقصَ الموتى
على إيقاعهِ المجنونِ .
يا قارب الفلّين
للعرب الغرقى الذين شتتهُمْ سفنُ القراصنةِ
وأدركتهم لعنة الفراعنة .
وسنةً .. بعد سنة ..
صارت لهم « حطينْ » ..
تميمةَ الطفلِ ، واكسيرَ الغدِ العنينْ

(جبل التوباد حيّاك الحيا)
(وسقى الله ثرانا الأجنبى !)

مَرَّت خيولُ التركْ
مَرَّت خيولُ الشِّركْ
مَرَّت خيول الملك — النِسر ،
مَرَّتْ خيولُ التترِ الباقينْ
ونحن — جيلا بعد جيل — فى ميادين المراهنة
نموت تحت الأحصنةْ !
وأنت فى المذياع ، فى جرائد التهوينْ
تستوقف الفارين
تخطب فيهم صائحاً : « حطينْ » ..
وترتدى العقالَ تارةً ،
وترتدى ملابس الفدائيينْ
وتشربُ الشاىَ مع الجنودِ
فى المعسكرات الخشنةْ

وترفع الرايةَ ،

حتى تسترد المدنَ المرتهنَة
وتطلقَ النارَ على جوادكَ المسكينْ
حتى سقطت — أيها الزعيم
واغتالتك أيدى الكهنة !

(وطنى لو شُغِلْتُ بالخلدِ عنه ..)
(نازعتنى — لمجلس الأمن — نفسى !)

نَمْ يا صلاح الدين
نَمْ .. تتدلى فوق قبرك الورودُ ..
كالمظليين !
ونحن ساهرون فى نافذةِ الحنينْ
نُقشّرُ التفاحَ بالسكينْ
ونسأل الله « القروض الحسنة » !
فاتحةً :
آمينْ .

بكائية لصقر قريش

.

عِمْ صباحاً .. أيها الصقرُ المُجنَّحْ
عم صباحا ..
هل ترقبتَ كثيرا أن ترى الشمسَ
التى تغسلُ فى ماءِ البحيراتِ الجراحا
ثم تلهو بكراتِ الثلجِ ،
تستلقى على التربةِ ،
تستلقى .. وتتفَتحْ !
هل ترقبتَ كثيرا أن ترى الشمسَ .. لتفرحْ
وتسدَ الأفقَ للشرق جناحا ؟
أنت ذا باقٍ على الراياتِ .. مصلوبا .. مباحا

تصرّ الريحُ ؛ وأضلاعُك كالروض المُصوَّحْ
تتشهّى لذغةَ الشمسِ التى تنسج للدفءِ وشاحا !

أنت ذا باقٍ على الرايات مصلوبا .. مباحا
ـــ « اسقني .. »
لا يرفع الجندُ سوى كوبِ دمٍ .. مازال يسفحْ !
ـــ « اسقني .. »
ـــ هاك الشرابَ النبوىَّ ..
اشربْهُ عذبا وقراحا
مثلما يشربه الباكونَ ..
والماشونَ فى أنشودةِ الفقرِ المسلَّحْ !
ـــ « اسقنى .. »
لا يرفع الجندُ سوى كوبِ دمٍ مازال يسفحْ !
بينما « السادةُ » فى بوابةِ الصمت المملح
يتلقون الرياحا
ليلفوها بأطرافِ العباءاتِ ..
يدقوا فى ذراعيها المساميرَ ..

وتبقى أنتَ
(ما بين خيوطِ الوشى)
زراً ذهبياً
يتأرجحْ !
وقف « الأغرابُ » فى بوابةِ الصمتِ المملحْ
يشهرون الصَلَفَ الأسودَ فى الوجهِ سلاحا
ينقلون الأرضَ : أكياساً من الرملِ .
وأكداساً من الظلّ
على ظهرِ الجوادِ العربىِّ المُتَرَنّحْ !
ينقلون الأرضَ ..
نحو الناقلاتِ الراسياتِ – الآنَ – فى البحرِ
التى تنوى الرواحا
دون أن تطلقَ فى رأسِ الحصانْ
طلقةَ الرحمةِ ،
أو تمنحه بعضَ امتنانْ !

عِمْ صباحاً أيها الصقرُ المُجَنَّحْ
عِم صباحا.

سنةٌ تمضى ، وأخرى سوف تأتى .
فمتى يقبل موتى ..
قبل أن أصبحَ ــ مثل الصقرِ ــ
صقراً مستباحاً !؟

قالت امرأة فى المدينة

(١)

سيف جدى على حائط البيت .. يبكى :
وصورته فى ثيابِ الركوبْ !

(٢)

قالت امرأةٌ فى المدينة
من ذلك الأُمَوِىُّ الذى يتباكى على دم عثمان !
من قال إن الخيانة تنجب غير الخيانة ؟
كونوا له يا رجال ..
أم تحبون أن يتَفَيَّأْ أطفالكم تحت
سيف ابن هندْ ؟

... ...

ربما ردَّت الريحُ ــ سيدتى ــ نصفَ ردْ
ضَاعَ .. وابتلعته الرمالْ !
نحن جيلُ الحروب ..
نحن جيلُ السباحةِ فى الدمِ ..
ألقت بنا السفنُ الورقيةُ فوق ثلوج العدم
(قبضاتُ القلوب ــ
وحدها ــ حطمتها .. ومازال فيها الأسى والندوب ..)

نحن جيلُ الألم
لم نَرَ القدسَ إلا تصاويرَ
لم نتكلَّمْ سوى لغة العرب الفاتحين
لم نتسلمْ سوى رايةِ العربِ النازحينَ ،
ولم نتعلم سوى أنْ هذا الرصاصَ
مفاتيحُ بابِ فلسطين

فاشهد لنا ياقلم
أننا لم ننمْ
أننا لم نقف بين « لا » و« نعم »

ما أقل الحروفَ التى يتألفَ منها اسمٌ مَا ضاعَ من وطنٍ،
واسمُ من مَات من أجلِهِ
من أخٍ أو حبيبْ !
هل عرفنا كتابةَ أسمائنا بالمدادِ
على كتبِ الدرسِ ؟
ها قد عرفنا كتابة أسمائنا
بالأظافرِ فى غرفِ الحبسِ
أو بالدماء على جيفة الرملِ والشمسِ ،
أو بالسوادِ على صفحات الجرائدِ قبل الأخيرة .
أو بحداد الأرامل فى ردهاتِ (المعاشاتِ) ،
أو بالغبارِ الذى يتوالى على الصورِ
المنزليةِ للشهداءِ
الغبارُ الذى يتوالى على أوجه الشهداء ..
إلى أن .. تغيبْ !!
قالت امرأةٌ فى المدينة :
من يجرؤ الآنَ أن يخفضَ العلمَ القرمزىَّ
الذى رفعته الجماجمْ ،
أو يبيعَ رغيفَ اللحم الساخنِ المتخثرِ فوق الرمالْ .

أو يمدُّ يداً للعظامِ التى ما استكانتْ
(وكانتْ رجالْ ..)
كى تكونَ توائمَ ماثلةً للتواقيع
أو قلماً
أو عصا فى المراسمْ ؟

... ...
لم يجبها أحدْ ..
غيرُ سيفٍ قديم ..
وصورةُ جدْ !

إلى محمود حسن إسماعيل
فى ذكراه

واحدٌ من جنودِكَ يا سيدى .
قطعوا يوم مؤتةَ منى اليدينْ
فاحتضنتُ لواءك بالمرفقينْ
واحتسبتُ لوجهكَ مُستشهَدى !

واحدٌ من جنودك — يا أيها الشعرُ —
هل يصلُ الصوتُ ؟
(والريحُ مشدودةٌ بالمساميرِ !)
هل يصلُ الصوتُ ؟
(والعصافيرُ مرصودةٌ بالنواطيرِ !)

هل يصل الصوتُ ؟
أم يصل الموتُ ؟
قلْ لى ، فإنى أناديكَ
من زمن الشعراءِ ــ الأناشيد
للشعراءِ ــ السجاجيد
من زمنِ الشعراءِ ــ الصعاليكِ
للشعراءِ ــ المماليكِ .
أرسم دائرة بالطباشيرِ
لا أتجاوزها !
كيف لى ؟ وأنا أتمزق ما بين رُخَّيْنِ !
والقدمانِ معلقتان بفخين !
أعيانىَ الكرُّ والفرُّ
واجتازنى الخيرُ والشرُّ
أيسِرْ . تيسَّرتُ ، حتى تعسَّرتُ ، حتى تعثَّرتْ .
أيمِنْ . تيمَّنتُ ، حتى تيمَّمتُ ، حتى تيتمتْ .
أين المفرُّ ؟ وأين المقرْ ؟
للخفافيش أسماؤها التى تتسمَّى بها !
فلمن تتسمى إذا انتسب النورُ !

والنورُ لا ينتمى الآن للشمس
فالشمسُ هالاتُها تتحلق فوق العقالاتِ .
هل طلع البدرُ من يثربٍ أم من الأحمدى ؟
وبانت سعادُ :.
تراها تبينُ من البردة النبويةِ
أم من قلنسوة الكاهنين الخَزَرْ ؟
واحدٌ من جنودك يا سيدى

ألف بيتٍ وبيتْ ..
واحتوتكَ الكويتْ !
فعرفت بموتك أين غدى !

واحدٌ من جنودكَ — يا أيها الشعرُ — !
كلُّ الأحبةِ يرتحلونَ
فترحل شيئاً فشيئاً من العين ألفةُ هذا الوطنْ
نتغربُ فى الأرضِ . نصبحُ أغربةً فى التآبين ننعى
زهورَ البساتينِ
لا نتوقف فى صحفِ اليوم إلا أمام العناوين
نمرؤها دون أن يطرفَ الجفنُ .

سرعان ما نفتح الصفحاتِ قبيل الأخيرة ،
ندخلُ فيها مجالسُ أحرفَها ،
فتعود لنا ألفةُ الأصدقاءِ ، وذكرى الوجوهِ
تعود لنا الحيويةُ ، والدهشةُ العَرَضيّةُ
واللونُ ، والأمنُ ، والحزنُ .
هذا هو العالمُ المتبقى لنا : إنه الصمتُ
والذكرياتُ ، السوادُ هو الأهلُ والبيتُ .
إن البياضَ الوحيدَ الذى نرتجيه
البياضَ الوحيدَ الذى نتوحدُ فيهْ :
بياضُ الكفن !

واحدٌ من جنودِكَ يا سيدى
خبزه خُبزٌ ضيقٌ
ماؤه بلُّ ريقْ
والمماتُ بعينيه كالمولدِ ،
واحدٌ من جنودِكَ يا سيدى
يركع الآن ينشدُ جوهرةً تتخبأُ فى الوحلِ
أو قمراً فى البحيراتِ ،
أو فرساً نافراً فى الغمامْ .

ها هو الآن ، لا نهرَ يغسل فيه الجروحْ
وينهلُ من مائه شربةً تمسك الروحْ
لا منزلٌ لا مقامْ
فعلى الراحلينَ السلامْ
والسلامُ على من أقامْ .

« تذييـــل »

يضم هذا الديوان القصائد الأخيرة التي كتبها أمل دنقل (١٩٤٠ — ١٩٨٣) طوال فترة مرضه الذي صارعه أربع سنوات . من أوائل سبتمبر ١٩٧٩ إلى أواخر مايو ١٩٨٣ . ولم نجد لهذا الديوان عنوانا أكثر صدقا من « أوراق الغرفة (٨) » ؛ فالديوان ينطوي على أوراق أمل الأخيرة ، والغرفة رقم (٨) هي آخر الغرف التي قاوم فيها أمل مرضه ، قرابة عام ونصف ، في الدور السابع من « المعهد القومي للأورام » ، من فبراير ١٩٨٢ إلى يوم رحيله الساعة الرابعة من صباح السبت ، الحادي والعشرين من مايو ١٩٨٣ .

و « الجنوبي » هي الورقة الأولى في هذا الديوان ، ولكنها الورقة الأخيرة في رحلة إبداع أمل دنقل ، فقد كتبت في فبراير ١٩٨٣ ، وتنطوي على رؤيا النهاية التي اكتملت دائرتها ، بعد تأملات الغرفة (٨) عام ١٩٨٢ ، تلك التأملات التي صاغتها القصائد : « ضد من » ، و « زهور » (وكانت الكتابة النهائية لكلتيهما في مايو ١٩٨٢) و « لعبة النهاية » (الكتابة النهائية في يونيو ١٩٨٢) و « السرير » (نوفمبر ١٩٨٢)

وهناك قصائد أخرى — فى هذا الديوان تنتمى إلى تاريخ مقارب ، منها « الطيور » و « الخيول » ، ولقد كتبت كلتاهما عام ١٩٨١ ، ولكن أمل ظل يغيّر ويبدل فيهما — كعادته فى الحرص على أقصى درجات الدقة اللغوية ، وأقصى درجات التجانس البنائى — إلى أن استقر على الصياغة الأخيرة للطيور فى أكتوبر من العام الماضى ، والصياغة الأخيرة للخيول فى أواخر ديسمبر من العام نفسه . وعلى العكس من هاتين القصيدتين ، مازالت قصيدته فى الذكرى الرابعة لمحمود حسن إسماعيل — إبريل ١٩٨١ — تنتظر اللمسة الأخيرة ، ولم نملك سوى أن نستخلصها من آخر مسوداتها .

أما بقية قصائد هذا الديوان فترجع إلى فترة زمنية تمتد من عام ١٩٧٥ . لاتمثل هذه القصائد كل ماكتبه أمل دنقل فى الرحلة السابقة على مرضه ، ولكنها كثر ماوجدته السيدة زوجته — عبلة الروينى — من قصائد هذه المرحلة إتساقا م الدلالات الأساسية التى ينطوى عليها هذا الديوان .

قصائد متفرقة

إلى صديقة دمشقية

اذا سباكِ قائدُ التتار
وصرتِ محظية ...
فشد شعرا منك فى سعار
وافتض عذرية ..
واغرورقت عيونك الزرق السماوية
بدمعة كالصيف ، ماسية
وغبت فى الأسوار !
فمن ترى يفتح عين الليل بابتسامة النهار ؟

٭ ٭ ٭

مازلتِ رغم الصمت والحصار
اذكر عينيك المضيئتين من خلف الخمار
وبسمة الثغر الطفولية ..
اذكر امسياتنا القصار
ورحلة السفح الصباحية
حين التقينا نضرب الأشجار
ونقذف الأحجار
فى مساء فسقيه !

٭ ٭ ٭

قلتِ ــ ونحن نسدل الأستار
فى شرفة البيت الأمامية :
لا تبتعد عنى
أنظرْ الى عينى
هل تستحق دمعةً من أدمع الحزن ؟

ولم أجبك ، فالمباخر الشآمية
والحب والتذكار
طغت على لحنى
لم تبق منى وهم ، أغنيه !
وقلتُ ، والصمت العميق تدقه الأمطار
على الشوارع الجليدية :
عدتُ اليك .. بعد طول التيه فى البحار
أدفن حزنى فى عبير الخصلات الكستنائية
أسير فى جناتك الخضر الربيعية
أبلُّ ريق الشوق من غدرانها ،
أغسل عن وجهى الغبار !!
نافحتُ عنك قائد التتار
رشقتُ فى جواده .. مدية
لكننى خشيت أن تمسَّك الأخطار
حين استحالت فى الدجى الرؤية
لذا استطاع فى سحابة من الغبار
أن يخطف العذراء .. تاركا على يدى الإزار

كآلوهم ، كالفريه !

... ...

(.. مابالنا نستذكر الماضى ، دعى الاظفار ..
لا تنبش الموتى ، تعرى حرمة الأسرار ..)

.

• • •

ياكم تمنت زمرة الأشرار
لو مزقوا تنورة فى الخصر .. بُنَيَّة
لو علموك العزف فى القيثار
لتطربهم كل أمر
حتى اذا انفضت أغانيك الدمشقية
تناهبوك ؛ القادة الأقزام .. والأنصار
ثم رموك للجنود الانكشارية
يقضون من شبابك الاوطار !

• • •

الآن .. مهما يقرع الاعصار
نوافذ البيت الزجاجية ،
لن ينطفى فى الموقد المكدود رقص النار
تستدفىء الأيدى على وهج العناق الحار
كى تولد الشمس التى نختار
فى وحشة الليل الشتائية !

أيلول ١٩٦٦

عشـــــــــــــاء

قصدتهم فى موعد العشاء
تطلعوا لى برهة ،
ولم يرد واحد منهم تحية المساء !
... وعادت الأيدى تراوح الملاعق الصغيرة
فى طبق الحساء
... ...
نظرت فى الوعاء :
هتفت : « ويحكم .. دمى
هذا دمى .. فانتبهوا »
.. لم يأبهوا !

وظلّت الأيدى تراوح الملاعق الصغيرة
وظلت الشفاه تلعق الدماء !

البطاقة السوداء

« إلى أنور المعداوى »

أراه من نوافذ المترو .. على محطات الوقوف
مستندا بكتفه اليسرى إلى الجدار
يدير فى اصبعه سلسلة
فضية الاطار
يرقب — باسما — تزاحم المناكب القصير
تمسح عيناه زجاج النافذات الأبيض الشفيف ..
كأنه يبحث عن أحد .
كأنه يرقب من شرفته ،
هرولة السارين فى تساقط الأمطار والبرد !

لكننى ..
حين استقرت عينه علىَّ :
أدرت رأسى عنه ..
لم أقو على بريق عينيه المخيف !

• • •

وحينا تحملنى وأصدقائى فى الطريق .. موجةُ المرح
ونسترد روحنا فى الضحكات والغناء .
أبصره .. فى الجانب الآخر . يرنو مستخفاً ، باسما
فإن تجاوزناه .. ألقى عقب سيجارته على الطوار
وداسه مغمغما ..
ثم اختفى ..
كأنه شبح !
وفى طريق العودة الليلى .. ألقاهُ
يخرج من جوف الظلام فجأة .. على غير انتظار .
كأن باباً ـــ فى الشتاء ـــ مغلقاً .. قد انفتح
كأن تيارا من الهواء

يكنس من أعصابى الدفء .. وينساهُ !
.. يمر بى ؛ مدثرا بالمعطف الثقيل ،
هادىء الخطى ،

تلمع فى الظلام عيناه
يسأل ـ هامسا ـ عن الوقت بلا اكتراث
ويختفى ..
كأن احدى الشجرات احتضنته ..
صيرته بعض ظلها الكثيف !

وفى سويعات الضحى المشمسة المعتدلة
حين تنقّر العصافير ثمار التوت ،
مستدفئة من لذعة الخريف
أجلس فى المائدة المنعزلة ..
محدثا صديقتى ..
فى ذلك المقهى الربيعىّ الأليف
ـ حيث يمر النيل راعيا مغنيًا
ويرفع الصباح راية الفرح ـ

مرتشفين من عصير الكلمات .. والثمار
معتنقين فى ضمائر الحروف ..
وفجأة ..
يسقط من يدى القدح !
ألمحه ممدا ساقيه فى المائدة المقابلة
يرمقنى من خلف نظارته السوداء خفية ،
مختبئا بسمته خلف صحيفة الصباح .. المهملة !

• • •

وعندما دخلت « بارادای » فى اليوم الأخير
رأيته .. يخترق المقاعد الملقاة .. والأضواء
ويفتح الصنبور
مشعث الشعر ، يضج قلبه بالرعب واللهاث
.. تساقطت ــ قبل اغتساله ــ على الحوض النقى بقعة
لكنه لم يكترث !
رجّل فى المرآة شعره الغزير
ثم دنا من جمع اصدقائى الصغير

قلبا عينين ثعلبيتين فى الوجوه ، صامتا
وفجأة ..
ألقى الينا ورقة دون اكتراث
ودون أن يلتفتا ؛
مضى الى الخارج ..
تاركا على المنضدة الحيرى بطاقته
.. كانت بطاقة سوداء ..
... ...
.. ومات فى المساء !

لا أبكيه

مصر لاتبدأ من مصر القريبة انها تبدأ من أحجار « طيبة » .

انها تبدأ منذ انطبعت قدم الماء على الأرض الجديبة .

ثوبها الأخضر لايبلى ، اذا خلعته .. رفت الشمس ثقوبه .

انها ليست عصورا فهى الكل فى الواحد ، فى الذات الرحيبة .

أرضها لا تعرف الموت فما الموت إلا عودة .. أخرى .. قريبة .

تعبر القطرة فى النيل فمن حولها الرقص وأعياد الخصوبة .

فاذا البحر طواها ، نفرت وأسترد الماء فى الوادى دروبه .

وأعاد الماء للنيل هروبه وأسترد الماء فى مصر العذوبة .

فسقى النيل به — ثانية — ظمأ البحر اذا ما مد كوبه !

هكذا شعبك يامصر ؟ له دوره الماء ونجواه الرطيبة
مات فيه الموت يوما .. فانثنى هرما للموت يستجلى غيوبه
أبدا يبنى ويأتى غيره ناشرا فيه أساه وحروبه
فاذا راح أبتنى ثم ابتنى فانثنى الغازى اليه بالعقوبة !
وكأن الذل فى الشعب ضريبة وابتسام الصبر قد صار ذنوبه
وكأن الدم نيل آخر تستقى منه الرمال المستطيبة
كل أبنائك يامصر مضوا شهداء الغد فى نبل وطيبة
الذى لم يقض فى الحرب قضى وهو يعطى الفأس والغرس وجيبه
والذى لم يقض فى الفأس قضى حاملا أحجار اسوان الرهيبة
اسمعى فى الليل أنات الاسى اسمعى حزن المواويل الكئيبة
انها اسماء من ماتــوا .. ولم يبرحوا القلب فقد صاروا ندوبة
سيعودون ، فلا تبكى ، فما يرتضى المحبوب ان تبكى الحبيبة
أترى تبكين من مات .. لكى تستعيدى راية الفكر السليبة
والذى مات لكى ينفش فى كل قلب ناشىء حرف العروبة
ولكى يحتضن الطفل حقيبة ولكى تقتات بالعلم الشبيبة
ولكى يهوى حجاب الخوف عن روح ربات الحجال المستريبة

ولكى يرفع سيف العدل فى وجه ابناء المماليك الغربية

والذى لولاه مامـرت لنـا — فى عبور النار للحرب — كتيبة

اترى تبكين يامصر ؟ أنـا لست أبكيه وان كنت ربيبه

شرف الأبناء أن يمضى أب بعد أن قدم للمجد نصيبة

شرف للأب أن يمضى فلا تعترى أبناءه الروح الزغيبة

انما يبكى ضعاف الناس ان عجزوا ان يدركوا حجم المصيبة

١٩٧٣ م

العراف الأعمى

قولى من أين ؟
الصمت شعاب ..
والكلمات بلا عينين !
... ...
علمنى الليل .. وأدخلنى السرداب
(قدماى نسيتهما عند الأعتاب
ويداى تركتهما فوق الأبواب)
انك لا تدرين
معنى ان يمشى الانسان .. ويمشى ..
(بحثا عن انسان آخر)
حتى تتآكل فى قدميه الأرض ،

ويذوى من شفتيه القول !
الآف الاوجه لى وجهى ..
لكنك لا تدرين
أى وجوه تتدلى منها بسمات الزيف
ضائعة المعنى ، متآكلة الانف
... ...
أرشق فى الحائط حد المطواة
والموت يهب من الصحف الملقاة
أتجزأ فى المرآة
يصفعنى وجهى المتخفى بقناع الذل
أصفعه .. أصفع هذا الظل
كل الناس يفارقهم ظلهم عند الليل
الا ظلي ....
يتسلل معى ، يتمدد فوق وسادي المبتل !
البسمة حلم
والشمس هى الدينار الزائف
فى طبق اليوم
من يمسح عنى عرقى فى هذا اليوم الصائف ؟

والظل الخائف
يتمدد من تحتى ، ينفصل بين الأرض .. وبينى !
... ...
وتضاءلت كحرف مات بأرض الخوف :
(حاء .. باء ..)
(حاء .. راء .. باء .. هاء)
الحرف السيف
مازلت أرود بلاد اللون الداكن
أبحث عنه بين الأحياء الموتى .. والموتى الأحياء
حتى يرتد النبض الى القلب الساكن
لكن .. !!

... ...
وأخيرا عدت
أحمل فى صدرى صمت الطاعة
وبلا .. ساعة
ماجدوى الساعة فى قوم قد فقدوا الوقت ؟

ورجعتِ بدون كتاب غير كتاب الموت ،
وضجيج الناس
أغنية .. كخطيط نعاس :
« لم نولد لنهز الدنيا »
« لم نخلق لنخوض معارك ! »
« نحن ولدنا ..
للالهام ..
للأحلام ..
للصلوات .. »
...
ضميني فى صدرك .. حتى اتنبأ
وأنا لا أكتب .. أو أقرأ !!

— ١٩٧٤ —

نجمة السراب

صديقتى شدت على يدى ..
وقالت : لن أزورَ غُرْفَتَكْ
إن شئت .. فلْنَبقَ معاً إلى الابدْ .
ولم أردْ
لأن ثوب العرس — فى معارض الأزياء —
نجمة تدور فى سراب .
ولم أزل أدقُّ باباً بعد بابْ
وخطوتى تنهيدة ، وأعيني ضبابْ
حتى بلغت غرفتى فى آخر المطافْ
وقطتى تلذ ...
مواؤها : عذاب أنثى ليلة المخاضْ

أنثى وحيدة .. تلذْ .

... وأخلَدَ الجيرانُ للسُكونْ .

وقطُهمْ يجلسُ — فى الشباكِ — ناعس العيونْ

يلعقُ فى فرائِهِ المُنقَّط البَيَاضْ .

يلعقُ — عن فرائِه — عذابَ قطتى الممتدّ

.. سعت اليه ذات ليلةٍ ،

ولم تسلْهُ ثوباً للزفافْ !

لانَّ ثوبَ العرْسِ

— فى معارضِ الأزياءِ —

نجمة تدور فى سراب !!

أيــــدوم النــهـــر

أيدوم لنا بستان الزهر
والبيت الهادىء عند النهر
ان يسقط خاتمنا فى الماء
ويضيع .. يضيع مع التيار
وتفرقنا الأيدى السوداء ..
ونسير على طرقات النار ..
لا نجرؤ تحت سياط القهر
ان نلقى النظرة خلف الزهر
ويغيب النهر .

أيدوم لنا البيت المرح
نتخاصم فيه ونصطلح
دقات الساعة والمجهول
تتباعد عنى حين اراك
وأقول لزهر الصيف .. اقول
لو ينمو الورد بلا اشواك
ويظل البدر طوال الدهر
لا يكبر عن منتصف الشهر
آه يا زهر ..
لو دمت لنا ..
أو دام النهر .

— ١٩٨٠ —

البكاء بين يدي زرقاء اليمامة ١٠٥

قصائد متفرقة

